الخلود

فى التراث الثقافى المصرى

الخلود

فى التراث الثقافى المصرى

تأليف

دكتور سيّد عويس

الخبير الأول بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية



دار المعارف بمصر

١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

الإهـداء

إلى الذى كرس حياته ليصنع حياة جيل بأسره . . .

أبناؤه الآن رجال يصنعون الرجـــال . . .

إلى أستاذى . . .

الأستاذ المربى الجليل المغفور له يعقوب فام . . .

سيد عويس

الاعتراف بالفضل لذويه

الآن وقد تم إعداد كتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » ، فإنه لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من يسر لى هذا العمل . . وإلا أن أعترف بالفضل لكل من عاوننى . . وتعاون معى . . مهما كانت صورة هذه المعاونة أو صورة هذا التعاون . .

وإن أنس لا أنسى فضل الذين يسروا لى أو ساعدونى فى جمع مادة هذا الكتاب . . لا أنسى فضل الأستاذ السيد سابق الذى أهدانى مجموعة مؤلفاته القيمة ، ولا فضل صديقى الأستاذ جمال البنا الذى جمع بعض المادة المتعلقة بالحياة بعد الموت فى التراث الثقافى الإسلامى وأهدانى بعض الكتب المتخصصة فى هذا الموضوع ، ولا فضل أخى ورفيق صباى الأستاذ محمد محمد بدر الذى أهدانى بعض الكتب المتخصصة فى التراث الثقافى الإسلامى . . ولا فضل مستر هربرت ريكا المدير الفنى للمعهد السويسرى لبحوث الآثار الذى يسر لى الاطلاع على المراجع المتخصصة فى التراث الثقافى المصرى القديم . . ولا فضل الذين يسروا لى الاطلاع على المراجع المتخصصة فى التراث الثقافى المصرى المسيحى ، وأخص منهم بالذكر المشرفين على مكتبة دير الآباء الدومنكيين ، وصديقى وزميلى الأستاذ الباحث مكرم سمعان ، والزميلة الإخصائية الاجتماعية الأستاذة صوفى وليم . ولن أنسى فضل صديقى وزميلى السيد الدكتور الخبير الباحث محمد خيرى والأستاذ الباحث على حسن فهمى اللذين زودانى بالمراجع الأخرى ، الفلسفية منها والدينية ، التى يسرت لى فهم بعض الموضوعات التى تناولها الكتاب . . . .

وإننى أذكر بالشكر الذين تفضلوا بإتاحة الفرصة لى للاغتراف من فيض علمهم وخبرتهم ، فأفسحوا لى من وقتهم الثمين ، ويسروا لى مناقشتهم ، كل حسب تخصصه ، فى بعض موضوعات الكتاب . وأخص منهم بالذكر السيدة إلزا ثابت مديرة جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق والأستاذ شارل كوينز عالم الآثار ،

والأستاذ ا . بيانكوف عالم الآثار ، والأستاذ جيرار هيني عالم الآثار . وكذلك السادة الأفاضل القس الدكتور باخوم المحرقي والقس مرقص داود والقس يوحنا جرجس راعي كنيسة مارى مرقص بشبرا والقس أنطونيوس أمين راعي كنيسة مارى مرقص بمصر الجديدة والأستاذ الكبير عياد عياد والأستاذ زكي شنودة المحامى .

وأذكر بالشكر الجزيل الأستاذ محمد شوقي الذى قام بعملية الكتابة على الآلة الكاتبة .

فلهم منى ، جميعاً ، فائق شكرى وعظيم تقديرى . . .

سيد عويس

محتويات الكتاب

مقدمة

إن التحدث عن ظاهرة الموت ، والتحدث عن ظاهرة الحياة ، والتحدث عن الموتى وما يتبع ذلك من التحدث عن فكرة الخلود أو الحياة بعد الموت . . والتحدث عن فكرة وجود الله . . . إلخ ، كلها أمور قد شغلت الناس جميعاً منذ أن مات أول إنسان . . الناس على مر العصور . . الفلاسفة منهم والمفكرون . . الشعراء منهم والأدباء . . الفنانون منهم والعلماء . . الناس الذين يوصفون بالمتحضرين . . والناس الذين يعيشون حياة بدائية أو حياة البداوة . . على السواء . .

ولا يدعى المؤلف أن حديثه، عن هذه الموضوعات ، سيكون شاملا ، أو جامعاً مانعاً . . بل سيقتصر هذا الحديث على ما يمت إلى الدراسة الحالية بصلة وثيقة . . وهى دراسة نظرية تهتم ، أول ما تهتم ، بموضوع الخلود فى التراث الثقافى المصرى . . ومن ثم ستكون موضوعات الكتاب الحالى محددة بهذا المجال . .

ويستخدم اصطلاح « الخلود » ، بصفة عامة ، بمعنى الدوام والاستمرار . وذلك عندما نقول ، مثلا ، إن كتابات « أفلاطون » ، ومسرحيات « شكسبير » ، وموسيقى « موزار » أعمال خالدة . ولكن استخدام اصطلاح الخلود الرئيسى يعنى استمرار وجود الناس الروحى بعد موت أبدانهم . وهذا هو معنى مفهوم الخلود الذى استخدمناه فى الكتاب . ويلاحظ أن عرض فكرة الخلود بهذا المعنى ، لا يعنى ، فى كثير أو فى قليل ، بإثبات أو عدم إثبات وجود حياة بعد الموت . فهذا موضوع ، مع خطورته ، خارج ، بالضرورة ، عن مجال الدراسة الحالية . .

ومن الضرورى ، أن نشير ، هنا ، إلى أن المجتمع المصرى مجتمع قديم ومستمر . وهو مجتمع ذو تراث ثقافى ثرى وخصيب كذلك . . فمصر لم يكن لها نيل واحد يفيض على أرضها بغزير مائه ، ماء الحياة ، يأتى من السماء (على حد قول القدامى) مندفعاً من جبال أثيوبيا بطميه وخصبه يوزعه على جانبى الوادى ويدفع بالزائد عبر البحر . فما النيل إلا نهر من عدة أنهار . . . فهناك نهر الديانات ، وهو أطول

أنهار الدنيا ، ظهر مع الخوف من المجهول والاحتماء والاستسلام لعدد من الآلهة ، انتهى بالإيمان بإله واحد ، ثم جاءت المسيحية ، ثم جاء الإسلام .

وثمة نهر ثالث احتوى الثقافات المختلفة والعلوم والمدنيات وجاالميثوليات[١] وهى إشعاعات إنسانية اندمجت بعضها فى بعض فى وحدة ساهمت فى تطور الإنسان واستمرار نمائه وحيويته .

وساير تلك الأنهار ، نهر آخر ، هو اللباس المتغير الذى كانت تظهر به الديانات والميثولوجيات والثقافات والمدنيات كلما انتقلت من صورة إلى غيرها ، وتغيرت من عقيدة إلى أخرى ، وهو مجرى الفنون ، من عمارة ونحت وتصوير وموسيقى وألحان وشعر وأدب .

على أننا لا ننسى ، أيضاً ، أن مصر ملتقى الطرق والبحار وخاصة ، البحر الأبيض المتوسط ، ونسيمه العاطر الذى حمل إلى مصر المدنية اليونانية والرومانية التى عاشت فيها ما يقرب من الألف سنة ، فاختلطت روحانية مصر وقصصها الدينى بالميثولوجيا اليونانية والرومانية التى تأثرت نوعاً بالحضارة السامية فى عقيدتها . فلما دخلت المسيحية ثم الإسلام إلى مصر لم يجدا فى شعب مصر أرضاً بكراً أو صحراء جرداء ، لأن مصر كانت تعرف « أوزيريس » واستشهاده ، ثم بعثه ، كما تعرف شقيقته « إيزيس » ، قبل أن يطرق آذانها صوت البشارة المرقسية عن « الفادى المخلص » ، وأمه « مريم العذراء » . وكذلك كانت تعرف الوحدانية العالمية قبل أن يغزو أرضها جيش عمرو بن العاص . لهذا لما احتضنت مصر تعاليم هذين الدينين ، تمثلت رموزهما وأسرارهما الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار[٢].

وكذلك لابد أن نذكر القارئ بأن تاريخ مصر هو تاريخ الدنيا ، تاريخ الحضارة القديمة التى أخرجت الإنسان من العصر الحجرى وجمع الطعام والرحلة

---

(١) المقصود بالميثولوجيات هو الدراسة العلمية للأساطير . ويلاحظ أن الأساطير كانت المحاولات الأولى للناس ، فى الأزمان الغابرة ، لتفسير ظواهر الطبيعة وظواهر المجتمع . حيث كان ينقصهم التفسير العلمى لهذه الظواهر ، فلجأوا إلى الخيال والأوهام . أى أن الأسطورة كانت ، عند القدماء ، عبارة عن الإجابة على السؤال : كيف تحدث ظاهرة طبيعية معينة ، أو ظاهرة اجتماعية معينة ؟ والإجابة على السؤال : لماذا تحدثان ؟

(٢) معهد الدراسات القبطية : المعرض الفنى الأول — القاهرة ، ١٩٥٨ .

فى الغابات والبرارى إلى عصر الزراعة واستنتاج الطعام ، والإقامة فى المنازل ، وإنشاء الأسرة والحكومة . ونحن حين ندرس تاريخها القديم نعرف كيف نشأ الطب ؟ وما العلاقة بين تحنيط الجثة وبين توبلة الطعام ؟ ولماذا أجمعت الأمم على الإكبار من شأن الذهب ؟ وكيف نشأت الملوكية وطبقات الأشراف ؟ وما الذى بعث على التجارة بين الأمم ؟ ولماذا تسمى الكيميا الآن باسم مصر القديم ؟ ولماذا أخذ الأوربيون التقويم المصرى ؟ بل لماذا تقدس البقرة فى الهند الآن ؟ فهذه البقرة هى معبودة المصريين القدماء « هاتور » التى يعرف اسمها كل فلاح مصرى . ويلاحظ أن بناء السفن هو صناعة مصرية قديمة ، قد نقحت ، ولكن أصولها المصرية لا تزال واضحة ، وأن العالم كله أو معظمه يدفن موتاه ، ويكفنهم ، ويبنى لهم القبور على العقائد المصرية ، حتى الروح يجب أن تطرد عقب الموت من البيت على الطريقة المصرية القديمة[١] .

وإزاء هذا كله ، كان على المؤلف أن يحدد ، أولا ، موضوعات الكتاب الحالى ، ثم يحدد ، ثانياً ، أسلوب معالجتها ودراستها . وكان الاختيار صعباً . ولكن حرص المؤلف على التزام مجال الدراسة يسر السبيل أمامه . وانتهى إلى دراسة الموضوعات التى يتضمنها الكتاب . على أن تكون هذه الدراسة دراسة مقارنة . . تهتم أول ما تهتم ، بمعالجة كل موضوع فى ضوء التراث الثقافى المصرى : المصرى القديم ، والمصرى المسيحى ، والمصرى الإسلامى[٢] .

وقد حرص المؤلف على أن يسجل ، باختصار ، الكثير مما كتب عن الموضوعات

---

(١) سلامة موسى : مصر أصل الحضارة – القاهرة ، المطبعة العصرية بمصر ، صفحات ١٠ – ١١ ، ٣٢ – ٣٣ .

انظر أيضاً :

جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ، إدارة الثقافة العامة ، ١٩٥٦ .

(٢) يعنى مفهوم « المصرى المسلم » كل مصرى يعتنق الإسلام كما نشىء عليه فى المجتمع المصرى . وستكون مصادر العناصر الثقافية التى يأخذ بها المصريون المسلمون هى المراجع المقررة والمطبوعة فى البلاد المصرية . وقد آثر المؤلف أن يسجل العناصر الثقافية التى يأخذ بها المصريون المسيحيون التابعون للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، فهم يمثلون الأغلبية الساحقة من المصريين المسيحيين ، على مر العصور ، وحتى وقتنا الحاضر .

التى تناولها الكتاب ، من المصادر الموثوق بها بقدر الإمكان . ولكن قد سجل بعض ما كتب عنها ، فى بعض الأحيان ، على علاته . ذلك لأن أهم ما نود أن نصل إليه هو الصورة التى تصل إلى أذهان الناس عن هذه الموضوعات ، من خلال القراءة عنها ، أو من خلال الاستماع لهذه القراءة ، مهما كانت هذه الصورة .

كما حرص المؤلف على أن لا يعوق سياق الدراسة بالهوامش والتعليقات ، فجرى على إثبات أرقام المراجع والتعليقات فى النص ثم جمعها فى جزء فى نهاية كل فصل ليرجع إليها القارئ ، وبطبيعة الحال فهى جزء متمم للدراسة ٥

ولعل ما تسفر عنه نتائج الدراسة الحالية أن ييسر السبيل إلى التعرف على عوامل وجود اتجاهات معينة ، عند الناس فى المجتمع المصرى المعاصر ، تتعلق بموضوع النظرة نحو ظاهرة الموت ، ونحو الموتى ، ونحو الخلود . .

الفصل الأول

ظاهرة الموت

يتضمن الفصل الحالى الموضوعات الآتية :

١ ـ نبذة عامة عن ظاهرة الموت .

٢ ـ معنى الموت عند المصريين القدماء .

٣ ـ معنى الموت عند المصريين المسيحيين .

٤ ـ معنى الموت عند المصريين المسلمين .

١ ـ نبذة عامة عن ظاهرة الموت

(مات) الإنسان يموت موتاً ، ومات يمات من باب خاف لغة ، ومت بالكسر أموت لغة ثالثة . ويقال فى الفرق مات الإنسان ، ونفقت الدابة ، وتنبل البعير ، ومات يصلح فى كل ذى روح . والموات بضم الميم والفتح لغة مثل الموتِ . وماتت الأرض موتاناً بفتحتين ومواتاً بالفتح ، خلت من العمارة والسكان ، فهى موات تسمية بالمصدر . وقيل الموات الأرض التى لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد . وكان العرب تسمى النوم موتاً ، وتسمى الانتباه حياة . ورجل موتان الفؤاد وزان سكران أى بليد . والميتة بالكسر للحال والهيئة ، ومات ميتة حسنة ، . والميتة من الحيوان ما مات حتف أنفه . والجميع ميتات . وأصلها ميتة بالتشديد ، قيل والتزم التشديد فى ميتة الأناسى لأنه الأصل . والتزم التخفيف فى غير الأناسى فرقاً بينهما ، ولأن استعمال هذه أكثر من الآدميات فكانت أولى بالتخفيف . والموتى جمع من يعقل . والميتون مختص بذكور العقلاء ، والميتات بالتشديد لأناثهم ، وبالتخفيف للحيوانات ، كل جمع على لفظ بمفرده . والأموات جمع ميت[١] .

والروح للحيوان مذكر ، وجمعه أرواح . وقيل الروح والنفس واحد غير أن العرب تذكر الروح ، وتؤنث النفس . وقيل إن الروح يذكر ويؤنث ، وكأن التأنيث على معنى النفس . قال بعضهم الروح النفس فإذا انقطع عن الحيوان فارقته الحياة . وقيل الروح هو الدم ، ولهذا تنقطع الحياة بنزفه ، وصلاح البدن وفساده بصلاح هذا الروح ! ويقال إن الروح هو النفس الناطقة المستعدة للبيان وفهم الخطاب ، ولا تفنى بفناء الجسد وإنه جوهر لا عرض[٢] .

* * *

ويعرف الموت ، أحياناً ، بأنه « طاوع الروح » ، أو هو « طلوع سر الإله » ، أو هو « الانتقال إلى حياة أخرى » . كما نجد من يصف الموت بأنه « حق » ، أو أنه « نهاية كل إنسان » ، أو أنه « راحة من تعب الحياة » ، أو أنه « هاذم اللذات ومفرق الجماعات » .

ولكن إذا حاولنا تعريف مفهوم الموت تعريفاً علميًّا ، فإننا نواجه صعوبة كبيرة . وقد حاول الباحث الاستعانة ببعض القواميس المتخصصة فلم يجد بها لهذا المفهوم تعريفاً [٣] .

ومع هذا فقد يوجد بعض التعاريف العلمية لمفهوم الموتِ . فقد يقال إن الموت هو « التوقف الدائم للوظائف الحيوية فى أجسام الحيواناتِ والنباتات[٤] » ، أو هو « ظاهرة التوقف عن الحياة » ، أو هو « ظاهرة توقف أو انقطاع الحياة » ، وفى قول آخر هو « ظاهرة التوقف النهائى عن الحياة » . وكل هذه التعاريف تمثل وجهة نظر الطب الشرعى .

وتوقف الحياة ، فى ضوء هذه التعاريف ، نوعان :

الأول : نوع وظيفى ، وهو خاص بتوقف القلب والتنفس الدائم ، وهو ما يعبر عنه بموت الفرد .

الثانى : يبدأ بعد ذلك ، عندما تبدأ الأنسجة فى التوقف عن العمل ، ويتم ذلك بعد حوالى ساعتين ، وهو ما يعبر عنه بموت الأنسجة[٥] .

وإذا أخذنا بهذه التعاريف ، أو بأحدها ، وهى فى الواقع كلها تعاريف متشابهة ، فإننا نواجه صعوبة أكثر ، ذلك لأننا فى هذه الحالة نواجه تعريف مفهوم الحياة .

* * *

وتعريف الحياة ليس بالأمر الهين ، لأننا نعرف جميعاً ما هو الإحساس بالحياة . ومن ثم نعجز عن وصف هذا الإحساس فى ضوء شى آخر . مثلنا فى ذلك مثل معرفتنا بالإحساس بالألم ، وبالجهد ، وبصفة الاحمرار . حيث نعجز ، أيضاً ، عن وصف أى من هذه الأحاسيس . ومع ذلك فتعريف الحياة أمر ضرورى للغاية ، لأننا نحتاج إلى ذلك . نحتاج إلى هذا التعريف ، مثلا ، عند التعرف على شخص ما إن كان حيًّا أو ميتاً . وكذلك عند التعرف على حياة أو موت ميكروبات معينة أو فيروسات معينة . أو حياة أو موت نوع معين من الحيوانات أو نوع معين من النباتات . . . .[٦] .

وتعريف الحياة يتوقف ، دائماً ، على النظرة نحو جوهر الحياة . فالناظر إلى

طبيعة الحياة ، على أنها مادية الأصل ، مثلها فى ذلك مثل باقى الأشياء فى العالم ، يتخذ تعريفاً للحياة يختلف عما يتخذه الناظر إلى مصدر جوهر الحياة على أنه مصدر روحى . ويلاحظ أنه إن كانت النظرة نحو الحياة نظرة مادية فإنه يتيسر بحث قوانينها ، وتغيير أنماطها وأشكالها بأسلوب منهجى واع (٧) .

والمتخصص فى علم البيولوجيا ، مثلا ، وهو يحاول وصف الحياة فى ضوء شىء آخر ، فإنه قد يحاول الأخذ بالتعبير القائل : إن الحياة هى « تأثير الروح فى المادة » . ولكنه سرعان ما يرفض الأخذ بهذا التعريف لأمرين :

الأول : أن المرء منا إذا كان مؤمناً بأن الناس ، وحتى الكلاب ، لهم أرواح ، فإنه يحتاج إلى إيمان أكبر ليجد روحاً فى محارة من المحارات أو قطعة من البطاطس .

الثانى : أن هذا التعريف قد يسرى على الكثير من الأعمال الفنية الخالدة ، أو على الكتب التى يتحلى فيها مؤلفوها بصدق الرؤية للأمور ، والتى تؤثر على عقول قرائها ، ويستمر هذا التأثير حتى بعد موت مؤلفيها بوقت طويل .

ويرفض المتخصص فى علم البيولوجيا ، أيضاً ، أن يعرف الحياة فى ضوء وجود ما يسمى بـ « دفعة حياة » أو « قوة حياة » (a life force) . بمعنى أنه توجد قوة حية فى الكائنات الحية . لأنه يرى أن هذا لا يعنى سوى ملاحظة هذه القوة الحية فى الحيوان أو النبات عن طريق تأثيرها فى المادة . أى أنه لابد أن يعرف الحياة فى ضوء المادة . وهو ، إذ يفعل ذلك ، فإنه لا يشك فى أنه يستطيع أن يعرف عن الحياة عن طريق استخدام علم الكيمياء ، اكثير من استخدام علم الطبيعة(٨) .

ومع اعتراف المتخصص فى علم الطبيعة بعجزه ، وحده ، إزاء مناقشة المشاكل المتصلة بأصل الحياة ووظائفها من وجهة نظر علم الطبيعة ، فإنه لا يحجم عن هذه المناقشة وطرح بعض النتائج التى يصل إليها . وهو يرى ، كغيره من العلماء ، إن تعريف مفهوم الحياة أمر صعب جداً . ولعله يجد أن مفهوم « الحياة » ومفهوم « حى » مفهومان لا يمكن من الناحية العملية أن يعرفا ، لأنه إذا أخذ إحدى صفات الحياة ، كل صفة على حدة ، مثل التنفس أو الحركة ، والتى تعتبر سمات الحياة ، فإنه يستطيع أن يبين أن هناك أشياء تطلق عليها صفة كونها « حية » ، ولا تملك واحدة من هذه الصفات ، ويستطيع أن يثبت وجود أشياء لا تطلق عليها

صفة كونها « حية » وتملك بعض هذه الصفات .

ومصدر صعوبة تعريف مفهوم الحياة عند المتخصص فى علم الطبيعة ، يأتى ، بالدرجة الأولى ، من أنه يرفض أى تعريف لا يكون فى ضوء المادة . مثله فى ذلك مثل المتخصص فى علم البيولوجيا ، وكل متخصص فى العلوم المادية . ويبدو أن المتخصص فى علم الطبيعة يلتقى مع المتخصص فى علم البيولوجيا فى معالجة مفهوم الحياة عن طريق استخدام علم الكيمياء . فالحياة عنده تشير ، بصفة خاصة ، إلى وحدة العمليات الدورية التى تحوى غالباً مركبات من الكربون والأزوت ، والتى تتيسر ملاحظتها على الكوكب الذى نعيش فيه[٩] .

ولا يعنى هذا أن الحياة تفسر ، فى ضوء علم الكيمياء ، تفسيراً كاملا ، ولكنه يعنى أن الحياة نموذج كيميائى أكثر منها وقائع فيزيقية . فالوقائع الكيميائية مشتركة فى كل صور الحياة . وهى متشابهة ، بشكل غريب ، فى كل التركيبات العضوية المختلفة . ويرى المتخصص فى علم البيولوجيا أن الحياة ، بالضرورة ، نموذج من الوقائع الكيمائية ، ويضاف إلى ذلك وجود بنيان معين للشكل فى معظم الكائنات الحية ، وكذلك لسمة الحركة فى معظم الحيوانات ، والشعور والغرض فى بعضها . كما يرى أن التركيب الكيميائى للكائنات الحية المختلفة مختلف جداً . فالشجرة ، مثلا ، تحتوى ، بوفرة ، على الخشب . ولا يشبه الخشب أى جزء من أجزاء الإنسان ، وإن كان يشبه مادة الجلوكوز التى هى جزء من أجزاء معظم أو كل أعضاء جسم الإنسان . ولكن التغيرات الكيمائية التى توجد فى أوراق الشجرة ، ولحائها ، وجذورها ، وخصوصاً الجذور ، هى ، من الغريب ، نفس التغيرات التى تحدث فى الأعضاء الآدمية . فالجذور تحتاج إلى الأكسوجين ، وكذلك الإنسان . ويستطيع المرء منا أن يتعرف إذا كان أحد الجذور حياً ، كما يستطيع ، تماماً ، أن يتعرف إذا كان أحد الكلاب حياً . وذلك بقياس كمية الأكسوجين التى يستهلكها الجذر فى الدقيقة [١٠].

والنظرة العلمية للحياة ، فى الواقع ، هى التى تعتبر الحياة فاعليات التركيبات العضوية التى تتكون من نظام كيميائى طبيعى معقد يسمى « البروتوبلازما » . ويوجد البروتوبلازما ، بصفة عامة ، فى وحدات تسمى « الخلايا » . ويلاحظ فى التركيبات

العضوية المتعددة الخلايا ، فى النبات والحيوان مثلا ، أن فاعليات التركيب العضوى تتوقف على وظائف الخلايا . ولكن يلاحظ ، أيضاً أن الخلايا لا يمكن اعتبارها وحدات مستقلة ، فعن طريق الهرمونات والأعصاب . . . إلخ يتم اندماج العملية الوظيفية للخلايا فى التركيب العضوى . إن خواص التركيب العضوى ، ككل ، هى نتاج لتفاعل جميع خلاياه ، ولذلك لا يمكن وصف هذه الخواص ، تماماً ، فى ضوء الخلايا المفردة . أى أن خواص التركيب العضوى لا يمكن أن تختزل إلى مجرد كونها أوجه نشاط الخلايا ، لأن الخلايا لا تعيش منعزلة . وكذلك لا يمكن أن تختزل خواص الخلية أومادة البروتوبلازما إلى مجرد كونها جزئيات كيمائية طبيعية . وترفض النظرة العلمية للحياة وجهة نظر أصحاب المذهب الحيوى (Vitalism) الذين يرون أن خواص الخلية ككل ، وخواص التركيب العضوى ككل ، لا يمكن تحليلها أو وصفها ، ذلك لأنها نتاج قوة حياة منزلة : أنتليخيا (entelechy) ، أى المركب من الهيولى والصورة — الروح .

وترى النظرة العلمية أن الحياة لم توجد منذ الأزل . وأن أصل وجودها من المادة غير الحية لم يكن سوى خطوة من خطوات النمو التاريخى الطويل ، أو التطور التاريخى الطويل للأرض التى نعيش فيها .

والسمة الفريدة للمادة الحية هى عملية التمثيل . وهى عملية متواصلة وفعالة وتحدث فى وقت واحد . وهى عبارة عن تغيرات كيميائية طبيعية مستمرة فى مادة البرتوبلازما ، ويتوقف استمرار وجود التركيبات العضوية عليها . وتتلخص عملية التمثيل فى أن الجسم البروتينى فى التركيب العضوى يمتص العناصر المناسبة من بيئته ، ثم يتمثلها ، فى الوقت الذى تستهلك أجزاء أخرى من الجسم وتخرج . أما الأجسام غير الحية فهى تتغير أيضاً وتستهلك أو تكون جزءاً من المركبات فى خلال العمليات الطبيعية ، ولكن يلاحظ أنها لا تصبح كما كانت . فقد تتآكل الصخرة بسبب عوامل التعرية ، ولكنها لا تبقى صخرة . والحديد إذا تأكسد يصبح صدأ ، أى أنه بما يكون سبباً فى إبادة الأجسام غير الحية ، يكون بالبروتينات الشرط الجوهرى للحياة . فى اللحظة التى تتوقف فيها هذه العملية التحويلية المتواصلة ، ويتوقف فيها هذا التغير المستمر فى استمراء الغذاء وفى إخراج الفضلات ، فى الجسم

البروتينى — فى هذه اللحظة ، ينتهى هذا الجسم البروتينى ، ويتحلل ، أى أنه يموت [١١] .

* * *

ولكن يلاحظ أن المعنى العلمى لمفهوم الموت ، أو المعنى العلمى لمفهوم الحياة ، سواء حاول شرح ذلك الطبيب الشرعى ، أو المتخصص فى علم البيولوجيا ، أو المتخصص فى علم الطبيعة ، يبدوان ، دائماً ، فى نظر الرجل البدائى ، معنيين غامضين . فتفسير الموت لأسباب طبيعية ، مثلا ، تفسير غير مقبول عنده . وإذا بدا له أن يتأمل الموت ، أو يفكر فيه ، فإنه يفشل حتما فى اعتباره ظاهرة طبيعية . وعنده إذا مات إنسان ما ، دون ما سبب ظاهر ، كالجراح مثلا ، فإنه يعتبره ضحية من ضحايا السحرة والأرواح الشريرة التى تتعاون معهم . ويعزى سبب موت أى إنسان ، فى بعض بلاد أفريقيا ، إلى سحر أحد سحرة القبائل المعادية ، أو إلى فعل أحد الجيران الحاقدين . ويكتشف المذنب ، أيًّا كان ، عادة ، عن طريق الاستعانة بأحد الكهنة ، أو عن طريق تعذيب أحدهم إلى أن يعترف[١٢] .

وتعد الوفاة التى ترجع إلى السحر ، فى مجتمع الأراندا فى وسط أستراليا ، من قبيل جرائم القتل . ووقوعها يفرض على أقرباء المجنى عليه الأقربين التزاماً بالانتقام بالقتل ، سواء من الساحر نفسه أو من أحد أقاربه . ومن ثم فإن من طبيعة الأمور فى هذه القبيلة ، أن يتبع أية وفاة بالسحر ، إزهاق روح شخص آخر[١٣] . وفى أستراليا ، على وجه العموم ، عندما يموت أحد السكان الأصليين ، يتخذ القرار ، توًّا ، بأن المتوفى قد أصابه السحر ، مهما كان واضحاً أن الموت كان نتيجة لأسباب طبيعية . وحتى فى وقتنا الحاضر نجد أن الفلاحين فى بعض البلاد الأوربية لا يزالون يعتقدون فى ان كل مرض من الأمراض يكون من فعل الشياطين . وقد يعتبر معنى النوم ، وكذلك معنى الغيبوبة ، عدم وجود الروح المؤقت . أما الموت فمعناه عدم وجود الروح الدائم . مع ملاحظة أن الروح يعتبر الجوهر الحيوى ، والجوهر الأخلاقى ، فضلا عن الجوهر المدرك[١٤] .

ونلاحظ أن « ريفرز » (Rivers) فى كتابه « مفهوم الرجل البدائى عن الموت » (The Primitive Conception of Death) ، قد أشار إلى أن الأجناس المختلفة يصنفون

مفهوم الموت بطريقة مختلفة عما هو معروف . فنجد الميلانيزيين (Melinesians) ، مثلا ، لا يفرقون بين الحياة والموت ، كما نفعل ، ولكنهم يفرقون بين الحياة السليمة من ناحية ، وبين المرض والموت من ناحية أخرى . ونجد أن لفظ « ميت » (Mate) عندهم ، يعنى المرض والموت ، وأن عكسه يعنى الصحة والعافية .

ويرى « ريفرز » أن هذا التصنيف يعكس مرحلة معينة من مراحل تطور التفكير . وقد يؤيد هذا ما نلاحظه من آداب الفيديكيين (Vedic) من أن التناقض يكون بين ما يسمونه « أمريتا » (Amrita) وبين الموت . وأمريتا ، ويترجم عادة بمعنى الخلود ، هو فى الواقع السلامة ، والعمر الطويل ، والأمن من المرض والحوادث واعتداءات الأعداء . وهو على نقيض الموت ، والشيخوخة ، والمرض . وعلى هذا فالفيديكيون لا يختلفون ، فى هذا المجال ، ماديًّا ، عن الميلاينزيين[١٥] .

والروح إما أن ينتشر فى خلال الجسم ، أو أن يكون مركزاً فى عضو واحد . ولعل ممارسة عملية صيد الرؤوس الآدمية (Head - Hunting) ترجع إلى الاعتقاد فى وجود مادة روحية تتوقف عليها الحياة . وتكون هذه المادة ، فى حالة الكائنات البشرية ، فى الغالب ، فى شكل بشرى ضئيل . وتوجد ، بصفة خاصة ، فى الرأس . فإذا جرد الرأس ، يسلب الروح الذى فيه . ومن ثم يضاف إلى المخزون العام من المادة الروحية التى يملكها المجتمع ، مما يزيد فى خصوبة السكان ، والقطيع ، فضلا عن المحاصيل الزراعية . ذلك لأن الروح يعتبر ، فى نظر تعاليم الكارينيين (Karens) ، بإقليم بورما ، شيئاً أشبه ما يكون بالدمية (pupa) ، تكون مملوءة بمادة بخارية ، وعند انفجارها تخرج محتوياتها وتنتشر ، فتخصب الحقول ، ثم تعود مرة أخرى عن طريق القمح المأكول ، أو العشب المأكول ، إلى أجسام الناس والحيوانات . ومنها مرة أخرى إلى السائل المنوى ، فيصبح الناس والحيوانات قادرين على نشر الحياة . ويلاحظ أنه على الرغم من أن هذا الاعتقاد لا يسلم به كل صائدى الرؤوس الآدمية ، فإن صيد الرؤوس الآدمية ، يستند على وجه العموم ، إلى اعتقاد آخر متشابه هو : أن دورة الحياة تتوقف على امتلاك الروح ، وأن الحياة شيء مادى يمكن نقله وتحويله[١٦] .

ولعل هذه الاعتقادات تظهر بجلاء أساس نظرية « تناسخ الأرواح » وهى

نظرية ترتبط ، عادة ، بالمصريين القدماء الذين قيل إنهم كانوا يمارسون عملية التحنيط لمنع أو تأخير عملية التجسيد مرة ثانية . أي ولادة الروح مرة أخرى فى جسم آخر . وهى مرتبطة أيضاً بتعاليم كل من فيثاغورس وبوذا ، وقد تمسكت بهذه النظرية إحدى طوائف المسيحيين الأوائل من الهراطقة ، وهم أتباع « جيرمى كولبير » (Jeremy Collier) .

ولكن الفكرة ، مع ذلك ، أقدم من كل العقائد السابقة . فإن مرور الروح أو الجوهر الحيوى فى شكل معين أمر مرتبط بعقائد الجارو بآسام (The Garos of Assam) الخاصة بتوقيع العقاب على الخطايا أو الحوادث فى هذه الحياة . ولا نشك فى تأثر هذه الفكرة بكل من البوذية والهندوسية . وترتبط الفكرة البدائية ، مستقلة عن التعاليم الأخلاقية ، بالاعتقاد بوجود روح مادى . وهى مرتبطة ، غالباً ، ببعض الأفكار الأخرى ، مثل ، تعدد وجود الأرواح فى الفرد الواحد ، ويكون أحدهما قابلا للانفصال وقادراً على الدخول أو الخروج عن طريق الفم أو فتحة الأنف . وهكذا نجد أن أهل قبيلة بوسو — الفيورز (Poso - Alfures) فى سيلبس (Celebs) يعتقدون فى وجود ثلاثة أرواح : الروح الأول يسمى الأنوسا (Inosa) ، أو الجوهر الحيوى . والروح الثانى يسمى الأنجا (Angga) ، أو الروح المدرك . أما الروح الثالث فيسمى التانونا (Tanoana) ، أو الروح ذو العنصر المقدس الذى يبرح الجسد فى أثناء النوم . وطبيعة الأخير من نفس طبيعة الأرواح فى الكثير من الحيوانات والنباتات . وهذا الروح القابل للانفصال مرده ، كما هو واضح ، إلى الاعتقاد بأن ظواهر الأحلام إن هى إلا تجارب واقعية تحدث فى أثناء النوم ، وتفترض نوعاً من التجسيد يكون قادراً على التجول بينما يكون الجسم نائماً . ولابد أن يكون هذا الروح صغيراً لدرجة يمكن معها أن يخرج من الفم . ويظهر الروح فى شكل قزم فى الهند وفى السيليبس ، وفى شكل الحية أو ابن عرس أو الفأر فى ألمانيا ، ومثل الحشرة فى أقصى الهند . وقيل عن الروح إنه « طيار » فى اليونان ، ويمثل فى شكل فراشة . ويمثل أيضاً ، فى الواقع ، فى هذا الشكل ، فى البلاد الأوربية من أيرلندا حتى لتوانيا ، وكذلك فى الصين ، وفى أسام ، وفى بورما ، وفى اليابان ، وفى الباسفيك . ويمثل الروح كذلك فى شكل طائر فى أوربا . وشكل الحمامة هو الشائع . وكثيراً ما ترى الأعمدة التى تحمل الحمام منصوبة على قبور اللومباردى . ولكن الروح يظهر أيضاً فى شكل

البط ، والغربان ، والبوم ، والصقور . ونجد الروح مثلا فى شكل الصقر فى مصر القديمة وفى أسام[١٧].

وقد يتصور الروح كأنه نفس الإنسان (Anima) ، ولفظ « نفس » قد أصبح مرادفاً للحياة نفسها . ولعل عبارة « آخر نفس » تعبر عن اعتقاد الرجل البدائى فى خروج شيء ملموس عند آخر تنفس للشخص المحتضر ، ويكون هذا الشيء قادراً على أن يكون له كيان منفصل — الروح . وتحكى الأساطير العديدة عن أصله ، فهو فى بعضها شيء مقدس قد انتهكت حرمته ، ومن ثم أوجدت قوة الموت ضد الإنسان ، وفى ياما الهندية ، نجد الأسطورة تقرر أن إله الموت ، هو أول إنسان تزوج من أخته ، ومن ثم خالف القانون الأساسى المتعلق بالزواج من خارج العشيرة . ويلاحظ أن هذه المخالفة ، حتى وقتنا هذا ، فى الكثير من الحالات ، تسبب الموت الواقعى والموت الأدبى . ونجد فى بعض الأساطير أن رحمة الله قد قدرت للناس أن لا يموتوا أبداً ، ولكن رسول البشرى السارة قد قصر أو زل[١٨].

٢ ــ معنى الموت عند المصريين القدماء

من خلال الأمور المحيرة التى يلاقيها الباحثون فى عقائد المصريين القدماء ، توجد آراء متشعبة تتعلق بموضوع العناصر التى تكون الشخصية الإنسانية عندهم . فهى ، فى مرة ، تتكون من ثلاثى يجمع ، فى وحدة ، كلا من « الكا » الذى يرى فيه البعض صورة غير مادية للجسم ، « صنو أو قرين » ، « والخو » (Khu) ، أى الروح ، و « الخات » (Khat) ، أى الجسم . وهى تتكون ، فى مرة أخرى ، من ثلاثى آخر يجمع « الخايبت » (Khaybet) ، أى الظل ، مع « ألبا » أى الروح ، و « السعحو » (Shau) أى المومية (الجثة المحنطة) ، أما القلب الجسدى فقد كان يسمى « الحاتى » (Hati) ، وكان يفترض فيه أن يكون مقر الذكاء . أما روحه فيسمى « الآب » (Ab) ، ويعنى الإرادة والشهوات . وكان رمز « الشرارة الحية » ، أو القوة المتحكمة يسمى « سخم » (Sekhem) ، وكان الرمز « ران » (Ran) يعبر عن الاسم الشخصى .

ولعل « الكا » من أجزاء الثلاثى الأول ، أكثر التصورات الأخرى ماديًّا ، وربما كان أكثرها عراقة عند المصريين . فقد تصور المصريون الأوائل أن الشخصية الإنسانية عبارة عن مركب من عنصرين : الجسم و « الكا » . وقد وجد فى المقابر التى تصور ميلاد الملوك ، أن الآلهة تحمل الأمير الذى ولد حديثاً على أيديها ، وتحمل أيضاً قرينه معه . وتبدأ « الكا » عند الميلاد ، وتستمر تحيا بعد الموت .

ولكن يلاحظ أن الإنسان ، وحده ، لا يملك « الكا » ، ولكن كل شىء له « كا » كذلك . فالسمكة لها قرين وكذلك أى حيوان آخر . والشجرة لها قرين أيضاً ، والمياه ، والمعادن ، والحجر ، وحتى الأسلحة والأشياء الأخرى التى يصنعها الإنسان . ولكن هذه الكائنات الروحية لا يراها كل إنسان ، ولكن يراها العرافون ومن فى حكمهم .

وقد تصور المصريون أن « الكا » يترك الجسم الإنسانى فى أثناء النوم ، أو فى

حالات الغيبوبة . وفى هذه الحالة يقوم بالتجول بعيداً ، ويزور الناس والأماكن ، وتبقى كل تجاربه حية فى الذاكرة . وفى هذا الضوء كانت تعتبر الأحلام حوادث واقعية .

أما « الخو » أو الروح ، فهو مفهوم غامض ، وقد يكون صورة أخرى من صور « الكا » ولعله أن يكون قرين العقل والإرادة والنيات وليس قرين الجسد المادى . ويصور « الخو » فى شكل طائر ، ويسمى « المنير » أو « المجيد » .

أما « البا » من أجزاء الثلاثى الثانى ، فهو مفهوم يوحد كلا من « الكا » و « الخو » وكان يمثل عادة على شكل طائر له رأس إنسان يحوم فوق « السعحو » أى المومية وهو يتفرس فيها فى لهفة ، ينشد دائماً ، الدخول إلى الجثة الملفوفة ، مرة ثانية .

أما « الخاييت » ، أو الظل ، فيبدو أنه بقية من بقايا عقيدة مبكرة . وهو مظهر آخر من مظاهر « الكا » . فالمصريون فى حياتهم البدائية الأولى ، مثلهم مثل الشعوب البدائية ، اعتقدوا أن ظلالهم إن هى إلا أرواحهم . وبقى هذا المفهوم ، على الرغم من تطور ثقافتهم ، وإن كان قد ارتبط بأعمال السحر .

أما « الران » أو الاسم فهو أيضاً من مظاهر « الكا » . وتمارس القدرة بمجرد النطق باسم معين ، ذلك لأنه يوجد تأثير معين فى الألفاظ التى كان يعتقد أن لها « قرناء » روحية . فالاسم الشخصى يطابق الروح ، ومن ثم تكفل خدمات الروح عندما ينطق بالاسم ، فالروح هو الاسم ، والاسم هو الروح . فإذا رغب الساحر فى القيام بعمل ضد شخص ما ، فإنه يستخدم اسمه وهو ينطق بتعويذاته السحرية الفعالة . ويتأثر الموتى كذلك كلما ذكرت أسماؤهم عند التضرع لهم ، ويطرد كذلك ، الأرواح الشريرة ، الذين يعرفون أسماءها .

ويلاحظ أن اختلاف المفاهيم المتعلقة بالروح ، عند المصريين ، يرجع إلى امتزاج العقائد ، الذى كان من أهم عوامله اختلاط الشعوب . ويرجع ، أيضاً ، إلى ميل المصريين إلى التمسك بأية عقيدة ، أو بأية صورة من عقيدة ، تنبعث ، بمرور الوقت ، فى المجتمع . والشعب الذى يعتقد فى وجود « القرناء » ، وفى تناسخ الأرواح ، يتوقع أن يكون لديه ، بالضرورة ، مفاهيم غامضة ومعقدة . والتنافر ، كما هو

واضح ، كان سمة من سمات معتقدات المصريين القدماء الدينية .

ومهما يكن فإنه يجب أن يكون مفهوماً أن العرض السابق يغطى فترة طويلة من تاريخ المصريين القدماء . وجدت ، فى خلالها ، نظم دينية عديدة كانت لها تأثيرات عظيمة فى تشكيل الفكر المصرى القديم . فقد كان يسود نظام دينى معين فى فترة معينة ، ثم يسود نظام دينى آخر ، فى فترة أخرى ، ينشر ، بدوره ، تعاليمه ومذاهبه الخاصة . مما أدى ، فى النهاية ، إلى قبول المصريين القدماء جميع المعتقدات[١٩] .

ومهما يكن من الأمر ، فقد تصور المصريون القدماء الموت على أنه انفصال العنصر الجسمانى عن العناصر الروحية . ويموت الإنسان ، وتموت الآلهة مثل الإنسان . ولكن الأفكار الغريبة التى تتعلق بالآلهة من حيث إنهم يموتون ولكن فى الوقت نفسه ما زالوا ، بمعنى آخر ، أحياء يمارسون القدرة — هذه الأفكار موجودة ، أيضاً ، بالنسبة لبنى الإنسان . وموت الناس ، بالمعنى العادى ، عند المصريين القدماء ، كان واضحاً . وفى بعض الحالات كان يعتبر الموت إبادة كاملة . فنجد عندما يذبح فرعون أعداءه ، مكتوباً ، أنه دمرهم وكأنهم لم يوجدوا أبداً . وكان المصريون القدماء يخشون هذا المصير . ولكن إذا كانت كل التحوطات ، لمنع ذلك ، قد اتخذت بنجاح ، فإن الموت العادى قد يكون مجرد انتقال من حالة حياة إلى حالة حياة أخرى . ولا تكون الحياة الثانية ، بالضرورة ، مشابهة تماماً للحياة على وجه الأرض ، أى عندما يكون الإنسان واقفاً على قدميه . ولكنها حياة مقاربة للأصل ، كما يسمح الخيال بذلك . ونجد تعبيراً لذلك ، مثلا ، فى التعبير الملطف عن الموت ، فهو ، عندهم ، يعنى حرفياً « الرحيل » . ونجد ذلك ، أيضاً فى العبارة ذهب إلى « كاه » أى أنه مات . ومعنى الموت كمجرد انتقال متضمن ، بوضوح ، فى استخدام المدلول « هناك » عند التحدث عن دنيا الموتى . فالعبارة « الذين هناك » كانت عبارة ملطفة ، شائعة ، تعنى الموتى[٢٠].

* * *

ويجب أن نلاحظ أن التفكير فى الموت وفى الحياة الآخرة ، كان شغل المصريين القدماء الشاغل . وقد يرجع ذلك إلى المناخ الفريد الذى تتمتع به مصر . حيث تستمر

الأيام الصافية يوماً بعد يوم ، وحيث يكون الهواء جافاً لدرجة أن المرء منا يوافق ، دون مناقشة جدية ، على ما ذكره فلندرز بيترى (Flinders Petrie) ، ذات مرة ، حيث يقول : « لعل المسألة هى أن اكتشاف سر تلاشى أى شىء يكون أولى من اكتشاف سر دوامه واستمراره ، حيث إن الدوام والاستمرار هما القاعدة . فهل يكون الإنسان استثناء من هذه القاعدة ؟ » . ولكن هذا التفسير ، كما هو واضح ، غير كاف . فهو لا يعلل فقط إلا نوعاً من التحيز العام من جانب الأحياء . ولا يمكن أن يكون مصدرنا للتنبؤ عن جميع أسباب أوجه النشاط غير العادية المتعلقة بالشعائر الجنازية التى نقرنها عادة ، بعملية التحنيط أو بناء الأهرامات .

ويبين وجود آلهة ، متخصصة ، للموت ، عند المصريين القدماء ، مثل الإله سكر ، والإله خنتى أمنتيو ، والإله أنوبيس ، بالضرورة ، مدى اهتمامهم بالموت .

* * *

ومهما يكن ، فلم تكن الحياة فى بلد من البلدان ، غير مصر ، أكثر جاذبية ، أو أكثر اشتهاء . ومع ذلك فلا يوجد ، أيضاً ، بلد من البلدان ، غير مصر ، أميط اللثام عن الموت ، فيه ، بمثل هذا الوضوح . ومن ثم ، فلا عجب إذا كان المصريون القدماء قد حملوا ، إلى درجة التعصب ، كراهية ومقتاً للموت ، وخصصوا جزءاً غير صغير من أموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبته . ولعل هذه الخاصّية النفسية الجوهرية ، عند المصريين القدماء ، تكشفها الكلمات الرئيسية للاستغاثة المنقوشة على الكثير من شواهد قبور المملكة المتوسطة . وتحض هذه الكلمات عابرى السبيل على ترتيل الدعوات بالنيابة عن المتوفى(٢١).

* * *

ويجب أن يكون فى الحسبان الفرق بين الخشية من الموت وبغضه وبين الخشية من الموتى . ويلاحظ أن المصريين القدماء لم يشعروا بالخوف الكبير من موتاهم . ويمكن إثبات ذلك من شواهد عديدة ، منها ، وربما يكون أهمها ، انتشار سرقة مقابرهم الزائد عن الحد(٢٢).

ويلاحظ أن ممارسة عملية طرد الروح عقب الموت ، من البيت ، كانت عملية مصرية قديمة .

٣ – معنى الموت عند المصريين المسيحيين

إن معنى الموت عند المصريين المسيحيين هو مفارقة الروح للجسد الذى هو من تراب . وتذهب الروح إلى مكانها اللائق بها . إما إلى مكان الأبرار أو إلى مكان الأشرار . ويقول الرسول بولس « لأننا نعلم أنه إن نقض بيت خيمتنا الأرض فلنا فى السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى » (٢ كو ٥ : ١) . وبيت خيمتنا الذى يشير إليه الرسول يفهم على ثلاثة أنواع ، أى يقصد به ثلاثة منازل نسكنها ما دمنا فى هذه الحياة ، وهى تحقق لنا الفناء وتؤكد لنا الزوال :

الأول : هذا العالم السفلى العنصرى الذى يشهد لنا عنه الكتاب الإلهى بأنه لابد أن يبيد ويزول بقوله : « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة ، وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠) .

الثانى : منازلنا المادية التى نسكنها والتى مهما بذلنا الجهد فى تحسينها وتزيينها لابد لنا أن نتركها كما يقول القديس أوغسطينوس : « لا تقل إن بيتك هو ملكك لأنك ورثته من أبيك ، لأن ذلك يدل على أن أباك قد جاز فيه وتركه ومضى . وهكذا أنت تجوز فيه وتتركه لابنك ، وهو أيضاً يعبر فيه جائزاً ويتركه لغيره » .

الثالث : جسدنا هذا المائت القابل للفساد ، ليس مسكن أرواحنا على حصر الكلام ، بل هو بمنزلة المظلة كقول الرسول بطرس « عالماً إن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح » (٢ بط ١ : ١٤) . أى أن جسدنا هو مثل الخيام التى يستظل بها المتغربون فى البرارى ، ولهذا نحن نتنهد من ثقله كما يشهد بذلك بولس قائلا : « فإننا نحن الذين فى الخيمة نئن مثقلين ، إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكى يبتلع المائت من الحياة » (٢ كو ٥ : ٤) .

وفى ضوء ما سبق يكون المنزل الحقيقى هو اللحد للجسد ، وهو المسكن الأبدى للروح . قال الجامعة : « فيرجع التراب إلى الأرض كما كان ، وترجع الروح إلى

الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) . وأن الله لم يخلق الإنسان للأرض بل للسماء ، والأرض فانية والسماء باقية : فالطبيعة الروحية لم تخلق لأمور هذه الحياة المادية بل لأمور أفضل(٢٣).

ومن البراهين التى يرددها المسيحيون المصريون على وجود الروح أو النفس أنها ذات حركة ذاتية ، والمراد بهذه الحركة الذاتية الانتقال من حيز السكون إلى حيز الحركة ، والعكس بالعكس ، باختيار ذاتى . فكونى أتحرك من ذاتى لغاية أعينها أنا نفسى . حاصلا فى ذاتى على أصل الفعل سواء كانت حركتى فى مكانى أو من مكان آخر ، دليل على أن فى جوهراً آخر غير مادى ، يدفعنى إلى هذه الحركة ، راسماً لى خطة السير ، ثم يوقفنى عنها عند اللزوم . وهذا الجوهر غير المادى هو ما يقال له نفس . إذن النفس موجودة .

والنفس ، أيضاً ، هى القوة المفكرة ، فالإنسان مفكر ، والحال أن المادة لا تفكر . وهذه القوة هى التى أوصلته إلى ذروة الاكتشافات والاختراعات ، مظهراً بذلك قوة الفكر العاقلة البديعة الكامنة فيه . فهل للمادة الجاهلة أن تظهر عقلية ما بالتأمل والتفكير ؟ كلا فإذن فى الإنسان شىء غير مادى هو الذى يمكنه من تلك القوة . والإنسان بقوته المفكرة ، يستطيع أن يتجول من مكان إلى مكان فى الأماكن الدانية والقاصية ، وفى الأزمنة الماضية والحاضرة والعتيدة ، بسرعة غريبة. ليس ذلك فقط. بل يستطيع أيضاً أن يحلق بها كما لو كان بجناحى نسر ، فى سماء الروحيات العليا ... وكذلك يطير بها إلى ما وراء جبال الأبدية اللانهائية ... فهل للمادة الضعيفة الساقطة أن تعطى منحة فوق طورها ، وأن تهب الإنسان هبة غير مادية ، لا تعلق لها بالحواس ألبتة ؟ إن ذلك عمل كيان آخر فى الإنسان غير مادى ، يفيض عليه بتأثيراته الأدبية . وذلك ما يقال عنه إنه روح أو نفس . إذن النفس موجودة .

والنفس ، كذلك ، هى قوة التصور والتمييز والحكم . والتصور هو الشعور الباطنى بتأثير من موضوع ما . والتمييز هو إدراك حقيقة هذا الموضوع . إن لذاته أو بالنسبة لآخر والحكم هو التصريح بنتيجة ما يشعر به ويدرك . والحال أن هذه الثلاثة لا يمكن أن تصدر عن المادة .

ويضيف المسيحيون المصريون إلى هذه البراهين برهانين آخرين الأول : استمرار

الذاتية مع تغيرات الجسم المتلاحقة ، أما البرهان الثانى فهو : وجود مبدأ فى الإنسان يباين مبدأ جسده[٢٤].

والروح أو النفس ، عند المسيحيين المصريين ، بسيطة غير مركبة من أجزاء ، ومستقلة . أى أنها جوهر بسيط ، ولا تقدر الطبيعة أن تفنيه ، ويكون فناء النفس من حق صانعها وبارئ الطبيعة جمعاء وهو الله . أى أن عدم قابليتها للموت ليس هو ذاتى جوهرى ، لأنّ ذلك يختص بالبارى وحده . ولكنه ملازم لها باعتبار عدم وجود أسباب فيها تجعلها قابلة للانحلال والزوال ، نظراً لبساطتها[٢٥].

* * *

وقد عبرت المسيحية عن الموت ، فى بعض الأحيان ، بالنوم . تدل على ذلك الآية : « وقال الرب لموسى ها أنت ترقد مع آبائك . . . » (تث ٣١ : ١٦) ، وكذلك الآيات : « قال هذا وبعد ذلك قال لهم . لعازر حبيبنا قد نام . لكنى أذهب لأوقظه . فقال تلاميذه يا سيد إن كان نام فهو يشفى . وكان يسوع يقول عن موته . وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم » (يو ١١ : ١١ — ١٣) .

* * *

وكثرة التفكير فى الموت ، عند المسيحيين المصريين ، مطلوبة . فهى تكبح جماح الإنسان ، وترد مطامعه ، وتلجم شهواته . وبقدر ما يتعمق الإنسان فى التأمل فى الموت تكثر حكمته ، وتزداد فطنته . ذلك « لأنه إن عاش الإنسان سنين كثيرة . فليفرح فيها كلها وليتذكر أيام الظلمة لأنها تكون كثيرة . كل ما يأتى باطل » (جا ١١ : ٨)[٢٦].

وقد ذكر الموت بصوره وأنواعه ، فى مواضع عديدة ، فى أسفار الكتاب المقدس وإصحاحاته . فنجد ذكره فى الآيات المتعلقة بالموت الطبيعى (٦٣ مرة) ، وبما يسمى بالموت الروحى (٢٩ مرة) ، وبما يسمى بالموت الأبدى (٤٣ مرة) ، وبموت المسيح (٥٦ مرة) ، وبموت القديسيين (٤٢ مرة) ، وبموت الأشرار (٤٤ مرة) ، وبالموت العقابى (٢٠ مرة) ، وبالموت الجسدى (ست مرات) ، وبالموت للخطية (أربع مرات) ، فضلا عن آيات أخرى تتعلق بموضوع الميت (٢٤ مرة) . أى أن الموت ، بأنواعه وصوره ، قد ذكر ، فى الكتاب المقدس ، (٣٣١ مرة)[٢٧].

* * *

والأرض عند المسيحيين المصريين ، ليست نصيباً لهم . فالذى يقصر الله أتعابه ويختاره قبل حينه إنما يمنع عنه الآلام والأتعاب ، كما قال أيوب : « الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً إن كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا تتجاوزه . فأقصر عنه ليستريح إلى أن يسر كالأجير بانتهاء يومه » (اى ١٤ : ١ ، ٥ ، ٦) . فأيام حياتنا مع كونها قصيرة ، لكنها رديئة جداً ، وهوذا يعقوب البار يشهد عنها قائلا : « قليلة رديئة » (تك ٤٧ : ٩) . وإن خروجنا من هذا العالم أفضل جداً وأكثر رحمة بنا من دخولنا إليه من كل الوجوه « يوم الممات خير من يوم الولادة » . لأن يوم الولادة يثقل كاهل النفس بحمل الجسد الثقيل ، أما يوم الممات فيحررها من ذلك الحمل . قال الحكيم : « ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس فهوذا دموع المظلومين ولا مفر لهم ومن يد ظالميهم قهر . أما هم فلا مفر لهم . فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس » (جا ٤ : ١ — ٣) [٢٨] .

* * *

والموت ، عند المصريين المسيحيين ، حقيقة يجب أن لا يخشاها الإنسان ، فالإنسان يدخل العالم من باب ، ولابد أن يخرج منه من باب آخر . فدخوله من باب الولادة وخروجه من باب الموت . وأن الإنسان كما سجل اسمه فى عداد المولودين يوماً ، سيسجل ، أيضاً ، ضمن الأموات فى يوم آخر . وأن الإنسان لابد أن يتهيأ لاستقبال الموت ، واللوم على من لم يتهيأ لهذا الاستقبال ، لأنه كمن أمن لمن هو عدوه ، كما قال الكتاب : « ويمحى عهدكم مع الموت ولا يثبت ميثاقكم مع الهاوية » (١ ش ٢٨ : ١٨) . وينبغى للإنسان أن يعد نفسه بين الذين يموتون فى هذه الثانية ، ولا يحسبها بين الذين يموتون بعد سنين . وأن من كان تحت خطر الإعدام يتصوره فى كل دقيقة . والمسيحيون تحت خطر الموت ، فليتصوروه على الدوام ، وليحتقروا الأرضيات ، وليرغبوا فى السماويات ، كى لا يكون لهم الموت هلاكاً دائماً ، بل حياة أبدية بالمسيح يسوع [٢٩] . ذلك لأن الإنسان لا يموت إلا مرة

واحدة (عب : ٩ : ٢٧) وبعد ذلك يكون الإنسان أمام أمرين : إما سعادة أبدية أو شقاء أبدى . أى أنه ليس للمصريين المسيحيين مجال ، بعد الموت ، لإصلاح ما وقع منهم ، هنا ، من الخطأ . فمن هذا الوجه الرجاء مقطوع ، والأمل مفقود . أى آن أمر خلاصهم أو هلاكهم متوقف على حالتهم قبل الموت . فكما يعيشون يموتون ويدانون . والحياة التى يحيونها ، والأعمال التى يعملونها ، هى التى تكسبهم الحياة الأبدية ، أو تقضى عليهم بالموت الأبدى[٣٠].

وعند ورود ساعة الموت يمتلئ المؤمن فرحاً وهو يقول « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) ، وملاك الرب يستلم روحه ليحملها إلى الأفراح الأبدية أمام عرش الله .

والويل لمن لا يتوب قبل حلول ساعة موته ؛ فإن ملائكة الله يقبلون وقتئذ عليه والغضب يتقدمهم ونار الله الآكلة ترافقهم ، فيستولى عليه الانزعاج والرعب ويحاول الفرار من فوق سرير احتضاره ولكن أنى تكون له القدرة على ذلك . حينئذ لا يجد لديه وسيلة إلا الندم والتوسل . وهل يجدى الندم بعد العدم ؟ يستغيث : (ارحمونى . ارحمونى ولا تحضرونى أمام الديان ونفسى مدنسة بالشرور والخطايا . ولا تفصلونى عن الجسد وأنا ملوث بالنتانة والخطيئة . اتركونى زماناً يسيراً لكى أتوب وأرجع إلى الله) . فتسمع نفسه صوت ملائكة الله قائلين لها : (أيتها النفس الشقية . لقد صرفت أيامك كلها فى الكسل والتوانى والآن تريدين التوبة والنجاة إن ذلك من المحال ، لأن نجمك قد أفل وموتك قد دنا واقترب . الله يدعوك لتدانى على ما عملت فاخرجى أيتها النفس الخاطئة لتنالى عقابك ، لأن وقت الخلاص قد انقضى وحبل الرجاء قد انقطع) . وكل هذا إتماماً لقول الكتاب الإلهى « كم ينطفى سراج الأشرار ويأتى عليهم بوارهم أو يقيم لهم أوجاعاً فى غضبه . أو يكونون كالتبن قدام الريح وكالعاصفة التى تسرقها الزوبعة . . لتنظر عيناه هلاكه ومن حمة القدير يشرب » (أى ٢١ : ١٧ و ١٨ و ٢٠)[٣١] .

وإذا كان المصرى المسيحى البار لا يكره الموت ولا يخشاه ، فالمصرى المسيحى الشرير يخشاه ويمقته . وإذا كانت المسيحية تدعو إلى عدم خشية الموت ، فإن خشية الموتى ، عند المصريين المسيحيين ، قد تبدو واضحة فى إحدى الحالات ، هى ،

طرد أرواح الموتى من البيت ، وهى عملية مصرية قديمة . ولا تدل ، فى نظرنا ، على الخشية من الموتى[٣٢].

* * *

وترجع عوامل الموت عند المسيحيين إلى هبوط آدم من الجنة ، التى فيها الحياة الخالدة ، إلى الأرض الفانية : « وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها . لأنك تراب وإلى تراب تعود » (تك ٣ : ١٧ – ١٩) . « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢) .

ويلاحظ أن الكنيسة القبطية تعتقد أن السيد المسيح بعد موته ذهبت نفسه الطاهرة وهى متحدة باللاهوت إلى الجحيم وأخرجت نفس آدم وحواء وجميع الأنفس المسجونة بطائلة الخطيئة الأصلية وماتوا على الرجاء ، وأصعدتهم إلى الفردوس[٣٣].

٤ ـ معنى الموت عند المصريين المسلمين

إن الموت عند المصريين المسلمين ، أمر هين سهل ، شأنه شأن النوم تماماً ، إنما يمتاز الموت بأنه إمساك للروح عند الله ، وهو تشريف وتقريب وذلك بنص الآية الشريفة : « اللهُ يَتَوفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (٤٢ ك الزمر ٣٩)[٣٤] .

وهم يرون أن الروح غير البدن ، وأنت بالروح لا بالجسم إنسان ، فالبدن كالثوب للروح . والثوب يبلى ويتجدد والروح يبقى .

وقد اختلفت الناس فى هذا ، فقالت طائفة تموت الروح ، وتذوق الموت ، لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت .

وقالوا وقد دلت الادلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » (٢٧ م الرحمن ٥٥) . وقال تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » (٨٨ ك القصص ٢٨) . وقالوا وإذا كانت الملائكة تموت ، فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » (١١ ك غافر ٤٠) ، فالموتة الأولى هذه المشهودة ، وهى للبدن ، والأخرى للروح .

وقال آخرون لا تموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان . قالوا وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة ، إلى أن يرجعها الله فى أجسادها . ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب . وقد قال تعالى : « ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا

بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » (١٦٩ م آل عمران ٣) . هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم ، وقد ذاقت الموت .

والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقة لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهى ذائقة الموت . وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً ، فهى لا تموت بهذا الاعتبار ، بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب . .[٣٥].

أى أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم ، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين مستبشرين[٣٦].

وقد خاض الناس ، قديماً وحديثاً ، فى حقيقة الروح . ولم يصلوا إلى معرفة حقيقتها ، أو إلى شىء يقربها إلى الأذهان والعقول . وكل ما قيل فيها فهو من باب التخيل ، فمن الباحثين من يرى أنها جسم لطيف فى صورة جسم الإنسان . ومنهم من يقول إنها لطيفة ربانية سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد . أو قبس من النور ، يحل فى الجسم ، كما يحل شعاع الشمس فى الكون . ومنهم من يرى أنها دم الحى الذى يسرى فى أجزائه . وكل هذه الأقوال وما شابهها ، لا دليل عليها من كتاب أو سنة أو منطق ، وكذلك لا دليل لمن يقول : إنها داخل الجسم . ولا من يقول : إنها خارجه . ولا من يقول ؛ إنها لا داخله ولا خارجه . فأمر الروح وصلتها بالأجسام من الأمور التى لم يحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها . فحقيقتها مغيبة عنّا ، والبحث عنها كالبحث عن معرفة ذات الله . وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب سائليه حين سالوه عن حقيقة الروح بقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » (٨٥ ك الإسراء ١٧)[٣٧].

وقد ناقش ابن القيم موضوع النفس والروح . هل هما شىء واحد ، أو شيئان متغايران ؟ وقد انتهى إلى أن النفس سميت روحاً لحصول الحياة بها ، وسميت نفساً إما من الشىء النفيس لنفاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشىء إذا خرج . فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفساً . ومنه النفس بالتحريك ، فإن العبد كلما نام خرجت منه ، فإذا استيقظ رجعت إليه ، فإذا مات خرجت خروجاً

كليًّا ، فإذا دفن عادت إليه ، فإذا سئل خرجت ، فإذا بعث رجعت إليه . والفرق بين النفس والروح ، عنده ، فرق بالصفات لا فرق بالذات [٣٨].

ويبدو أن مفهوم «القرين» يعترف به الإسلام . قال الله تعالى : «وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» (٢٣ ك ق ٥٠) ، وقال سبحانه وتعالى : «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» (٢٧ ك ق ٥٠) . وقال جل شانه : «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَاماً كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» (١٠ — ١٢ ك الانفطار ٨٢) . ولكن يلاحظ أنه يقصد بالقرين ، فى هذه الآيات ، الملك الموكل بالإنسان ، أو الشيطان ، أما الحافظون فالمقصود بهم الملائكة [٣٩].

* * *

وقد رغب الإسلام فى تذكر الموت ، والاستعداد له . روى النسائى وابن ماجة وغيرهما عن أبى هريرة ، رضى الله تعالى عنه ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثروا من ذكر هاذم اللذات » ، كما جاء فى رواية مرفوعة . وروى مالك وابن ماجة ، أن رجلا من الأنصار قال : « يا رسول الله أى المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقاً . وقال : أى المؤمنين أكيس ؟ قال أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك الأكياس » . وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات ، فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « كفى بالموت واعظاً » . وفى الحديث أنهم قالوا : « يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم ، من تذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » .

ويقول الشعرانى : « اعلموا أيها الإخوان أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج وطلب الخروج من هذه الدار الفانية ، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الباقية » . ويقول صاحب الروض : « إخوانى ، لا واعظ كالموت وما تتعظون ، وهو طالب لكم وأنتم عنه غافلون . أتظنون أنكم فى الدنيا مخلدون ولابد من ورود كأس المنون ؟ ، تزودوا للرحيل ، فقد سارت القافلة ، ولا تغتروا بزهرة الدنيا فإنها زائلة . وإياكم والآمال الباطلة ، فإن سمومها قاتلة . إلى متى أنت مقيم على غفلتك وجهلك ؟

إلى متى تغتر بمالك وأهلك ؟ إلى متى تؤثر فيك الدنيا الدنية وهى تسعى فى قتلك ؟ إلى متى تنسى لحاقك بمن كان من قبلك ؟ إلى متى لا يؤثر فيك عتابك وعدلك ؟ إلى متى لا تذكر رحيلك عن جميع ما تملك حتى لا تفهم المواعظ وقد قيلت من أجلك ؟ تيقظ يا غافل فكم لعب الهوى بمثلك »[٤٠] .

وقد ذكر الموت ، لفظه ومشتقاته ، فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم . وقد ذكر ، فى سور القرآن الكريم وآياته ١٦٥ مرة[٤١] .

* * *

وإذا رغب الإسلام فى تذكر الموت والاستعداد له ، فإنه يكره للمرء أن يتمناه أو يدعو به ، لفقر أو مرض أو محنة أو نحو ذلك . وقد روى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، وإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى » . وروى عن أنس ، أيضاً ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يتمنّين أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب (أى يتوب) ويترك الذنوب ، ويطلب رضا الله عنه قبل موته » .

ويلاحظ أن الإسلام جعل للمسلم فى هذه الأرض نصيباً . فيقول الله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا » (٧٧ ك القصص ٢٨) .

وقد جعل الله الموت من أعظم المصائب ، وقد سماه الله تعالى مصيبة فى قوله تعالى : « فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ » (١٠٦ م المائدة ٥) . وذلك لانه تبدل من حال إلى حال ، وانتقال من دار إلى دار ، وهو المصيبة العظمى والرزية الكبرى ، وأعظم منه الغفلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وقلة التفكير فيه وترك العمل . وقد تم الإجماع على أن الموت ، وحده ، عبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر ، وفى حديث « لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً » .

وروى أن ملك الموت جاء إلى إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ليقبض روحه ، فقال إبراهيم لملك الموت : هل رأيت خليلا يقبض روح خليله ؟ فعرج

ملك الموت إلى ربه سبحانه وتعالى فقال : قل له هل رأيت خليلا يكره لقاء خليله ؟؟ فرجع إليه فقال له : اقبض روحى الآن » . وكان أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له . فمن لم يصدقنى فليقرأ قوله تعالى : «وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » (١٩٨ م آل عمران ٣) . وقال حسان بن الأسود : « إنما كان الموت خير للمؤمن ، لأن فيه وصول الحبيب إلى الحبيب » .

وتمنى المسلم الموت ، والدعاء به ، جائز إذا خاف ذهاب شيء من دينه . قال الله تعالى مخبراً عن قول يوسف عليه الصلاة والسلام لما نال الرسالة والملك : « تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ » (١٠١ ك يوسف ١٢)]. وقالت مريم عليها السلام : « يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا » (٢٣ ك مريم ١٩) . وروى الإمام مالك رضى الله تعالى عنه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه » . وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضنى إليك ، غير مفترن » . وروى مالك رحمه الله أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان يدعو : « اللهم قد ضعفت قوتى ، وكبر سنى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ، ولا مقصر » . وكان أبو عبد الله الغفارى إذا رأى قوماً يفرون من الطاعون يقول : « يا طاعون خذنى إليك » . ويكرر ذلك ثلاثاً ، ويقول لمن عتبه على ذلك : « أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بادروا بالموت ستًّا ، إمرة السفهاء ، وكثرة الشرط ، وبيع الحكم ، واستخفافاً ، وقطيعة الرحم ، وقوماً يتخذون القرآن مزامير يقدمون الرجل ليغنيهم بالقرآن وإن كان أقلهم فقهاً »(٤٢).

* * *

ويرى الإسلام أن الخشية من الموت والفزع والجزع منه لا طائل منها . فالموت حق ، وهو أيضاً حقيقة آتية لا ريب فيها . ويقول الله سبحانه وتعالى : « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » (٧٨ م النساء ٤) . وعن

أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من بيت إلا وملك الموت يقف على بابه كل يوم خمس مرات ، فإذا وجد الإنسان قد نفذ أكله وانقطع أجله ألقى عليه غم الموت فغشيته كرباته وغمرته سكراته ، فمن أهل بيته الناشرة شعرها ، والضاربة وجهها ، والباكية لشجونها ، والصارخة لويلها . فيقول ملك الموت : ويلكم مم الفزع ، وفيم الجزع ؟ فما أذهبت لواحد منكم رزقاً ، ولا قربت له أجلا ، ولا أتيته حتى أمرت ، ولا قبضت روحه حتى استأمرت ، وإن لى فيكم عودة ثم عودة ، حتى لا أبقى منكم أحداً . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فوالذى نفس محمد بيده لو يرون مكانه ، أو يسمعون كلامه ، لذهبوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم ، حتى إذا حمل الميت على نعشه ، رفرفت روحه فوق النعش وهو ينادى : يا أهلى ويا ولدى لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله ومن غير حله ، ثم خلفته لغيرى . فالمال لكم والتبعة علىّ ، فاحذروا مثل ما حل بى »[٤٣].

وإذا كان الإسلام يدعو دعوة صريحة إلى عدم خشية الموت ، فإنه يلاحظ ، على المستوى النظرى ، إن تعاليمه تبيح ، وخصوصاً للرجال : زيارة قبور الموتى للعبرة والدرس ، فضلا عن الدعاء للموتى . قال الله تعالى : « أَلْهَٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ » (١ ك التكاثر ١٠٢)[٤٤].

* * *

ومما جاء فى سبب قبض ملك الموت أرواح الخلائق ، ما رواه الزهرى وغيره « أن الله تعالى أرسل جبريل ليأتى له من تربة الأرض بشىء ، فأتاها ليأخذ منها ، فاستعاذت بالله من ذلك فأعاذها . فأرسل ميكائيل ، فاستعاذت منه فأعاذها ، فأرسل عزرائيل ، فاستعاذت منه فلم يعذها وأخذ منها . فروى أن الرب جل وعلا قال لعزرائيل : أما استعاذت منك الأرض ؟ قال : نعم ، قال تعالى : هلا رحمتها كما رحمها صاحباك ؟ قال : يا رب طاعتك أوجب علىّ من رحمتى لها . فقال الله عز وجل : اذهب فأنت ملك الموت ، سلطتك على قبض أرواحهم ، فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا رب إنك تخلق من هذا الخلق أنبياء وأصفياء

ومرسلين ، وإنك لم تخلق خلقاً أكره إليهم من الموت ، فإذا عرفوني أبغضوني وشتموني . قال الله تعالى : « إني سأجعل للموت عللا وأسباباً وأوجاعاً فلا يكادون يذكرونك معها » . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « رفعت طينة آدم عليه الصلاة والسلام من ست أرضين وأكثرها من الأرض السادسة ، وليس منها شيء من الأرض السابعة ، لأن فيها نار جهنم ، فلما أتى ملك الموت بتربة آدم عليه الصلاة والسلام قال : أما استعاذت بى منك ؟ (الحديث كما مر)[٤٥].

والمعروف أن آدم قد أسكنه الله تعالى الجنة ، ولكنه عصاه ، ومن ثم قدر عليه أن يهبط إلى الارض . قال الله تعالى : «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهْ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٣٥-٣٧ م البقرة ٢).

وفى الحديث أن الأرض قالت لما أخذ منها تربة آدم عليه السلام : « يا رب خلقت السموات فلم تنقص منها شيئاً ، وخلقتني فنقصتني . فقال الرب جل وعلا : وعزتي وجلالي لأعيدنهم إليك برهم وفاجرهم . فقالت : وعزتك لأنتقمن ممن عصاك . قال : ثم دعا بمياه الأرض مالحها وعذبها وحلوها ومرها فطفا منها تربة آدم ، فأقام أربعين سنة لم ينفخ فيه الروح وكانت الملائكة تمر به فيقفون ينظرون إليه ويقول بعضهم لبعض : إن ربنا لم يخلق خلقاً أحسن من هذا : ثم مر به إبليس اللعين فضرب بيده عليه فسمع صلصلة وهو صلصال كالفخار . فقال إبليس : لئن فضل هذا علىّ لم أطعه ، وإن فضلت عليه أهلكته هذا من طين وأنا من نار»[٤٦].

المراجع والتعليقات

١ – أحمد بن محمد بن علي المقرى الفيومى : كتاب المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى ، تصحيح حمزة فتح الله – القاهرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٩٠٦ ، صفحتا ٧١٢ ، ٧١٣.

٢ – المرجع السابق : صفحتا ٢٩٠ – ٢٩١ .

٣ – انظر القواميس الآتية :

— M. Abercrombia, C.J. Hickman, and M.L. Johnson, "A Dictionary of Biology". Great Britain, Hunt, Barnard & Co., Ltd., 1951.

— E.B. Uvarov & D.R. Chapman, "A Dictionary of Science", Great Britain, The Whitefriars Press Ltd., 1959.

— James Drever, "A Dictionary of Psychology", Great Britain, C. Nickolls & Co. Ltd., 1955.

٤ — Encyclopaedia Britannica, Great Britain, 1957, vol. 7. p. 108.

٥ – يحيى شريف ومحمد عبد العزيز البهنساوى : مبادئ الطب الشرعى والسموم – القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، صفحة ٣ .

٦ — J.B.S. Haldane, "What Is Life ?", London, The Alcuin Press, 1949, p. 58.

٧ — A.J. Oparin, "The Origin of Life", Moscow, Foreign Languages Publishing House, 1953, pp. 5-6.

٨ — "What Is Life ?" p. 59.

٩ — J.D. Bernal, "The Physical Basis of Life", London, 1951, pp. 10-13.

١٠ — "What Is Life ?" pp. 59-60.

١١ — Howard Selsam, "Handbook of Philosophy", New York, International Publisher 1949, pp. 66-67.

١٢ — Encyclopaedia Britannica, vol. 7. p. 108.

١٣ — George Peter Murdock, "Our Primitive Contempararies", New York, The Macmillan Co., 1952, p. 43.

١٤ — Encyclopaedia Britannica, vol. 7, p. 108.

١٥ — Encyclopaedia of the Social Sciences, New York, The Macmillan Co., 1959, vol. five, p. 21.

١٦ — Encyclopaedia Britannica, vol. 11, p. 293.

انظر أيضاً :

— Christoph von Furer - Haimondrof, "The Naked Nagas : Head - Hunters of Assam in Peace and War", Calcutta, Thacher, Sprink & Co., Ltd., 1946.

١٧ — Encyclopaedia Britannica, vol. 15, p. 332.

١٨ — Encyclopaedia Britannica, vol. 7, p. 108.

١٩ — Donald - A. Mackenzie, "Egyptian Myth & Legend", London, The Gresham Publishing 30., 1913, pp. 87-91.

٢٠ – اتيين دريوتون وجاك فانديه : مصر – عربه عباس بيومى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، صفحة ٩٧ .

انظر أيضاً :

— Alan H. Gardiner, "The Attitude of The Ancient Egyptians To Death and The Dead", Cambridge, the University Press, 1935, pp. 12-13 & p. 40.

٢١ – اتيين دريوتون وجاك فانديه : مصر – صفحة ٦٩

ويلاحظ أن المصريين القدماء قد ألفوا ، فى ضوء إدمان التفكير فى العالم الآخر ، كشكولا من الجن والعفاريت والسحر والرقى والتعاويذ(انظر سلامة موسى : مصر أصل الحضارة ، القاهرة ، المطبعة العصرية ، صفحة ١٣٦) .

انظر أيضاً :

— "The Attitude of The Ancient Egyptians To Death and The Dead", pp. 5-6.

انظر أيضاً نفس المرجع صفحة ٣٦ ، حيث نجد بعض ما كتب على شاهد مقبرة :

« أنت الذى تعيش وتبقى ، أنت الذى تحب الحياة »
« وتمقت الموت ، كل من يمر إلى هذا القبر »
« كما تحب الحياة ، وتمقت الموت ، لهذا السبب »
« فإنك تهب لى بكل ما فى يديك . وإن كنت صفر »
« اليدين ، فتحدث بفمك كهذا :
« ألف من الخبز ، ومن الجعة ، ومن الثيران ، »
« ومن الأوز ، ومن أوعية مصنوعة من الرخام ، »
« ومن التيل . ألف من كل الأشياء النقية إلى »
« الموقر انيوتيف ((Enyotef)) بن انيوتيف بن »
« خيو((Khuu)) .

– ومن العجيب أننا كثيراً ما نشاهد على شواهد قبور بعض الموتى من المسلمين ، فى الوقت الحاضر ، كتابات مماثلة ، تحض زائريها على ترتيل الدعوات . منها :

« يا زائرى هل لى من دعوة صالحة »
« ابسط يديك إلى السماء واقرأ »
« لروحى الفاتحة » .

– وقد كان الكثير من الأغانى تدل على شدة تعلق المصريين القدماء بالحياة ومباهجها شأن كل شعب قوى سليم . حقاً لقد كان الرجل التقى يعتقد فى استمرار الحياة بعد الموت ولكنه لم يكن ينتظر هناك غير وجود خيالى لا يدعو إلى الابتهاج .

ويلاحظ أنه وجد ، أيضاً ، على نقيض هذا أغنية تمجد حقاً الموت لا عن شك وإلحاد وإنما عن تقوى ، وقد نشرها جاردنر فى (PSBA (1913) 665 ff.) (انظر أدولف أرمان وهرمان رانكة : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، القاهرة ، إدارة الثقافة العامة ، صفحة ٤٣٢) .

٢٢ — The Attitude of The Ancient Egyptians To Death and The Dead'', p. 33. —

— ويلاحظ أنه كما كان يوجد ، عند المصريين القدماء ، أناس طيبون وأناس أشرار ، كان يوجد ، عندهم ، أيضاً ، آلهة طيبون وآلهة أشرار ، وموتى طيبون ، وموتى أشرار . ومع هذا فإن خشية هؤلاء الموتى والأشرار ، أو تبجيلهم ، وهى الصورة المقابلة ، لم تنم كثيراً فى التركيب النفسى للمصريين .(نفس المرجع صفحتا ١٥ — ١٦ .

٢٣ — منسى يوحنا — طريق السماء ، القاهرة ، مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية ، ١٩٤٩ صفحات ٢١ — ٢٤ .

٢٤ — سمعان سليدس علم : القول اليقين فى الصلاة عن المنتقلين ، القاهرة ، مطبعة الشمس ، صفحات ٣٣ — ٣٧ .

٢٥ — المرجع السابق : صفحات ٣٨ — ٤٠ .

٢٦ — طريق السماء : صفحة ١٢٤ .

٢٧ — جمعية الكراريس البريطانية : مغنى الطلاب فى مواضيع الكتاب ، أى فهرس المواضيع فى الكتب الإلهية — بيروت ، ١٨٨٤ ، صفحات ٢٢٣ — ٢٢٥ .

٢٨ — طريق السماء : صفحات ٢٥ — ٢٨ .

٢٩ — المرجع السابق : صفحات ٣٧ — ٤٨ .

٣٠ — المرجع السابق : صفحة ١١٤ .

٣١ — المرجع السابق — صفحة ١٦٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

٣٢ — عند ما يموت المصرى المسيحى ، يقوم القسيس بأداء الصلاة فى نفس المكان الذى مات فيه بعد ثلاثة أيام من وفاته . ويترك نور المكان مضيئاً طوال الليل . وذلك بقصد طرد روحه حيث إنه يعتقد أن الروح تحوم حول المكان فى هذا الوقت ، خصوصاً روح الذى كان يحب الدنيا ويحرص عليها . ويلاحظ أن هذه العملية كان يمارسها القدماء المصريون . وهى منتشرة كذلك ، بين المصريين المسلمين حتى الوقت الحاضر .

ويلاحظ أن تعاليم المسيحية تحض على زيارة القبور للعبرة والدرس :

« الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة لأن ذاك نهاية كل إنسان والحى يصنعه فى قلبه » (جا ٧ : ٢) .

٣٣ — زكى شنودة : تاريخ الأقباط — الجزء الأول ، القاهرة ، جمعية التوفيق القبطية ، ١٩٦٢ ، صفحة ٢٦٩ .

٣٤ — عبد الرازق نوفل : طريق إلى الله — القاهرة ، ١٩٦٢ ، صفحة ١٠٧ .

٣٥ — شمس الدين أبو عبد الله بن القيم : الروح لابن القيم — القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ ، صفحة ٣٤ .

٣٦ – المرجع السابق : صفحة ٣٦ .
٣٧ – على رفاعى محمد : مواكب الأرواح إلى عالم الأفراح – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ ، صفحة ٩ .
٣٨ – « الروح لابن القيم » – صفحة ٢١٨ .
٣٩ – جلال الدين محمد بن أحمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : قرآن كريم ، وبهامشه تفسير الإمامين الجليلين – القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، صفحة ٤٣٨ وصفحة ٥٠٤ .
– يوجد عند المسيحيين مفهوم « التابعة » وهى الرئى من الجن ، ويقال إن هناك جنية تتبع الإنسان (الرجل) أو جنى يتبع (امرأة) . ويقال إن هذا التعبير خطأ . والصحيح هو وجود شخص اشتهر بأنه يتعامل مع شيطان تابع . أى شيطان يخصص لذلك الشخص . فهو دائماً فى خدمته ويقول الكتاب « ولا تطلبوا التوابع » (لا ١٩ : ٣١) .
كما يقول الكتاب « وإذا كان فى رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل . بالحجارة يرجمونه دمه عليه » (لا ٢٠ : ٢٧) .
ومهما يكن فمفهوم التابعة حقيقة تعترف بها المسيحية ، وهو قريب من مفهوم القرين فى الإسلام ومفهوم القرين عند قدماء المصريين (انظر عبد العزيز عطية : الأرواح فى ضوء الكتاب المقدس ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، صفحات ٥٣ – ٥٤) . (وانظر أيضاً : جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن – القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦ ، صفحة ٦٧) .
٤٠ – عبد الوهاب الشعرانى : مختصر تذكرة الإمام القرطبى ، المسمى التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة – القاهرة ، مطبعة صبيح وأولاده ، ١٩٥١ ، صفحة ٤ .
انظر أيضاً :
– شعيب الحريفيش : الروض الفائق فى المواعظ والرقائق – القاهرة ، مكتبة الجمهورية المصرية صفحة ٣٥١ .
انظر أيضاً :
– السيد سابق : فقه السنة – القاهرة ، المطبعة النموذجية ، الطبعة الثانية ، الجزء الرابع ، صفحتا ٤٤ – ٤٥ .
٤١ – محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٣٧٨ هجرية ، صفحات ٦٧٨ – ٦٨٠ .
٤٢ – الشعرانى : مختصر تذكرة الإمام القرطبى – صفحات ٢ – ٤ .
انظر أيضاً :
السيد سابق : فقه السنة – الجزء الرابع – صفحتا ٤٥ – ٤٦ .
٤٣ – الحريفيش : الروض الفائق – صفحة ٣٤٩ .
٤٤ – تلاحظ ظاهرة سكنى المصريين المسلمين المقابر حيث يعيش الكثيرون معيشة الآدميين بكل ظروفها وأحوالها ، فضلا عن كون الكثير من هذه المقابر ، باعتبارها مساكن ، أماكن لتجارة المخدرات وتعاطيها ، وممارسة سرقة الأكفان ، والاتجار فى عظام الموتى ، وممارسة الدعارة .

(انظر الدراسة غير المنشورة : مشكلة الإسكان فى مقابر باب النصر - إعداد حمدى الملاخ ، وإشراف سيد عويس ، ١٩٦٣ ، صفحات ٦١ - ٦٣) .

٤٥ - الشعرانى : مختصر تذكرة الإمام القرطبى ، صفحتا ٢٣ - ٢٤ .

٤٦ - المرجع السابق : صفحة ٢٤ .

الفصل الثانى

فكرة الخلود

يتضمن الفصل الحالى الموضوعات الآتية :

١ ــ نبذة عامة عن فكرة الخلود .

٢ ــ الحياة بعد الموت عند المصريين القدماء .

٣ ــ الحياة بعد الموت عند المصريين المسيحيين .

٤ ــ الحياة بعد الموت عند المصريين المسلمين .



١ ــ نبذة عامة عن فكرة الخلود

لقد حشد علماء الأنثروبولوجيا الأوائل ، مثل « تايلور » (E.B. Tylor) و « فريزر » (James Frazer) الأدلة المقنعة على أن عقيدة وجود حياة بعد الموت كانت منتشرة فى كثير من الأقاليم التى تسودها الثقافة البدائية . وأن هذه العقيدة قد سادت بين شعوب كثيرة عبر العصور والقرون . مع ملاحظة أن تصور طبيعة هذه الحياة كان متبايناً . وقد بين « تايلور » أنه ، فى خلال العصور الأولى المعروفة ، لم توجد أية علاقة أخلاقية بين سلوك الإنسان على وجه الأرض وبين الحياة فى الآخرة . وقد أكد « جاسترو » (Jastrow) عدم وجود أية اعتبارات أخلاقية بشأن الموتى عند البابليين والآشوريين القدماء . وقد قال « موتورى » (Motoori) ، أحد مفكرى اليابان ، فى القرن الثامن عشر ، : « إن الهاوية مكان تحت الأرض . وعندما يموت الناس وحيثما يموتون ، فإنهم يذهبون إليها ، النبلاء منهم والسفلة ، والفضلاء منهم والأشرار ، دون ما تمييز » . وقد أعلن ، فى بعض الأقاليم ، أن المحاربين الذين يستشهدون فى المعركة ، يذهبون إلى مكان حيث توجد فيه النعمة والسعادة . وظهر ، فى مرحلة تالية ، تطور عام للفكرة الأخلاقية ، ألا وهى ، أن الحياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقاً لسلوك الإنسان على وجه الأرض» . وفى هذا الضوء ، اعتقد المصريون القدماء ، فى أن الإنسان ، بعد موته ، سيمثل أمام القضاة بشأن هذا السلوك . ونجد الفارسيين من أتباع « زارا تشترا (Zarathustra) قد قبلوا فكرة « الصراط » وهو عبارة عن قنطرة يعبرها الناس بعد موتهم . وتكون عريضة أمام الأبرار ، وضيقة أمام الأشرار ، ومن ثم لا يستطيعون العبور ، ويهوون منها إلى الهاوية . وفى الهند ، نجد أن فكرة وجود السلمات الصاعدة أو الهابطة ، فى سلسلة من الأرواح المجسدة فى المستقبل (بعد الموت) ، كانت وما زالت ، تعتبر نتيجة لسلوك الإنسان واتجاهاته فى الحياة الواقعية الحاضرة . ويلاحظ أن فكرة الثواب والعقاب ، فى المستقبل ، قد سادت بين المسيحيين ، وفى العصور الوسطى . وما زالت هذه الفكرة سائدة بين الكثير من المسيحيين (على اختلاف) طوائفهم .

ويقابل ذلك الكثير من المفكرين المعاصرين غير الدينيين ، فهم يتمسكون بأن ما هو خير ، من وجهة النظر الأخلاقية ، يجب أن ينشد لذاته ، وأن الشر ، يجب أن يجتنب لذاته أيضاً .

ولا يعنى انتشار عقيدة الحياة بعد الموت، عبر التاريخ، دليلا على صحتها [١] . فلعلها أن تكون خرافة من الخرافات التى انبثقت من الأحلام أو من أية تجربة إنسانية أخرى . وعلى هذا فموضوع صلاحية هذه العقيدة كان شغل الفلاسفة الشاغل منذ العصور الأولى. ونجد فى « الأبانيشاد الهندوسى » (Hindu Katha-Upanishad)، أن « ناسيكيتا » (Naciketa) يقول: « هذا الشك حول إنسان يموت — يقول البعض: إنه يبقى ، ويقول آخرون : إنه لا يبقى . كيف أعرف هذا ؟ » . ويلاحظ أن « الأبانيشاد » ، هو أساس معظم الفلسفة الهندية . وهو عبارة ، فى الغالب ، عن مناقشة عن طبيعة الإنسان وعن مصيره النهائى. وكانت فكرة الخلود من الموضوعات الرئيسية التى عالجها « أفلاطون » . وفى ضوء جدله حول الحقيقة ، مثلا ، وأنها من الناحية الجوهرية روحية ، حاول « أفلاطون » ، وهو مصر على أن الروح لا يمكن إبادتها، أن يدلل على فكرة الخلود[٢] . وإذا صدقنا ما احتوته « محاورات أفلاطون » أمكننا أن نقول : « إن سقراط كان من أوائل من تقدموا بفرض نظرية خلود الروح » . وفى « فيدو أفلاطون » نجد أن « سقراط » ، أيضاً ، يطلق على الفلسفة عبارة « تأمل شئون الموت » أو بمعنى أصرح « تأمل خلود روح الإنسان من عدمه »[٣] وقد تصور « أرسطو » أن العقل أبدى . ولكنه لم يدافع عن الخلود الشخصى ، لأنه ظن أن الروح لا يمكن أن تبقى مجردة من الجسد . أما « الأبيقوريون » فقد كانت نظرتهم مادية ، وكانوا يعتقدون أنه لن يوجد وعى بعد الموت . ومن ثم فلا داعى للخشية منه . ويعتبر « الرواقيون » ، فى الأغلب ، أن الكون العاقل ، ككل، سيبقى. وأن أفراد الناس، كما يقول «ماركوس أوريليوس» (Marcus Aurelius) قد قسمت لهم فترات معينة على مسرح دراما الحياة. وقد قبل « شيشرون » (Cicero)، أخيراً ، فكرة الخلود الشخصى . واعتبر « أوجستين » أن ماهية أرواح الناس ، أبدية . وقد أعلن الفيلسوف المسلم « ابن سينا » أن الروح خالدة ، ولكن « ابن رشد » قد قبل ، متفقاً مع « أرسطو » ، أبدية العقل الجمعى فقط . وقد دافع

«البرتوس ماجنوس» (Albertus Magnus) عن الخلود على أساس أن الروح، كسبب في ذاتها، حقيقة فردية. وقد رأى «جون دنزسكوتس» (John Duns Scottus) أن الخلود الشخصي لا يمكن البرهنة عليه أو عدم البرهنة عليه عن طريق العقل. وقد أيد «سبينوزا» (Spinoza) أبدية الله، على اعتبار أن الله ككل، هو الحقيقة المطلقة. ولكنه لم يؤيد خلود أفراد الناس في الله. وقد رأى «ليبنز» (Leibniz) أن الحقيقة تتكون من جواهر فردية روحية. وأن الناس قد خلقهم الله كجواهر فردية غير قادرة على الإبداع عن طريق التأليف والتركيب، ويستطيع الله أن يبيدهم. ولما كان الله مع ذلك، قد غرس في نفوس الناس الدافع إلى الكمال الروحي، فإنه يوجد ثمة إيمان بأن الله سيؤكد، عن طريق تيسير تحقيق هذا الهدف، استمرار حياتهم. وبينما «كانت» (Kant) يسلم بأن الروح باقية، فهو يقترح أنها قد تنتهي إذا فقدت قدرتها. وأن الخلود لا يمكن البرهنة عليه عن طريق العقل فقط، ولكن يمكن أن يعتقد كقضية أخلاقية. والقداسة، أي مطابقة الإرادة الإنسانية للقانون الأخلاقي، تحتاج إلى تقدم لا نهاية له. وهذا متيسر، فقط، في ضوء افتراض الدوام اللانهائي لحياة الكائن العاقل وشخصيته، أي بما يسمى خلود الروح. أما «جوزيف بتلر» (Joseph Butler) فبينما يصر أن الأرجحية هي دليل الحياة، فإنه يرى، في ضوء أسس أخلاقية تماثل التي قدمها «كانت»، أن الخلود يجب أن يقبل على أنه مرجح ومحتمل. وقد أول فلسفة «هيجل» (Hegel) بعض تابعيه، على أنها تشير إلى زوال الذاتيات المتناهية في المطلق. بينما يرى بعض التابعين الآخرين ثباتها كأجزاء المطلق أو جواهره. وقد تصور «شوبنهاور» (Schopenhauer) أن الخلاص النهائي من بؤس الحياة هو عبارة عن المرور من الشخصية الواعية إلى الإرادة العامة غير الواعية.

ويوضح كل ما سبق المرقف الرئيسي للمعالجات الفلسفية لموضوع الخلود. ويلاحظ أنه بعد عام ١٩٢٥ لا توجد مناقشات فلسفية، يعتد بها كثيراً، عن هذا الموضوع. ويبدو أن الانطباع العام أنه لا يمكن الوصول إلى نتائج حاسمة عن هذا الموضوع. ومن ثم فإن التفكير فيه يحسن تجنبه. وقد تحدى «وليم ايرنست هوكنج» (William Earnest Hocking) هذا الاتجاه المعاصر، واعتبره عقماً في التفكير.

وقد رفض بعض المفكرين أية صورة من صور الاستمرار الروحى ، على أساس أن كل شيء مادى . ويلاحظ أن عدداً قليلا من الفلاسفة ، فى الشرق أو الغرب ، يتبنون فلسفة مادية معينة . وقد انتشرت الفلسفة المادية فى منتصف القرن العشرين بين أتباع الماركسية . وقد وجدوا فيها أساساً لرفض الاعتقاد فى فكرة الخلود ، كما يبشر بها القسس وغيرهم ، بقصد استغلال جماهير العالم . ويلاحظ أن بعض المفكرين المعاصرين يستبدلون باصطلاح المادية (Materialism) اصطلاح الطبيعية (Naturalism) ، إذ يعاملون الإنسان كجزء من الطبيعة . وعلى الرغم من أن موقفهم ميتافيزيقى مطلق ، فإنهم يحاولون وصف الحياة الإنسانية من غير الاعتراف بوجود روح روحية أو إله روحى . فنجد « جلبرت رايل » (Gilbert Ryle) يصف الروح بأنه شبح . ونجد « كورليس لامونت » (Corliss Lamont) يعتبر أن فكرة الخلود وهم ، أو من المحتمل ، ضرب من الضلال [٤] .

* * *

وبدراسة تاريخ الثقافات الغربية نجد أن « فكرة خلود الروح » قد لعبت دوراً أكبر من فكرة « وجود الله » . وقد لاحظ « وليام جيمس » (William James) ذلك عندما قال : « إن الدين ، فى الواقع ، عند الأغلبية من الناس ، يعنى خلود الروح ليس إلا . وأن الله هو موجد هذا الخلود » . ويقول الكاتب الإسبانى « ميجيل دى أنا مانو » (Miguel De Unamuno) : « كنت أتحدث إلى فلاح ، ذات يوم ، واقترحت عليه فرض وجود إله يحكم فى الأرض وفى السماء ، كما اقترحت عليه ، أيضاً ، فرض عدم خلود الأرواح وأنه لن يكون بعث ولا نشور بالمعنى التقليدى المعروف . فأجابنى الفلاح قائلا : « وما فائدة وجود الله إذن ؟ » . وربما كان « لوثر » (Luther) يفكر مثل هذا التفكير عندما قال حانقاً : « إذا لم تعتقد فى اليوم الآخر ، ما ساوى إلهك ، عندى ، شيئاً » . وحتى الشعراء قد اتبعوا هذا الرأى ، فقد أعلن « تنيسون » (Tennyson) ذلك قائلا : « لو أن خلود الروح غير حقيقى لكان شيطاناً مزوراً ، وليس الله ، من خلقنا » . وليس بمستغرب أن يكون هذا هو أسلوب هؤلاء السادة فى التفكير . فقد كتبوا هذه الأفكار فى ضوء تعاليم الديانة المسيحية . فالمسيحية قد أكدت فكرة الخلود تأييداً كبيراً . ونجد ، منذ فجر

المسيحية ، القديس « بولس » قد أعلن ، دون لبس ، لب هذا المذهب ، إذ يقول « وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم . . . . . إن كان لنا فى هذه الحياة فقط رجاء فى المسيح فإننا أشقى جميع الناس » (١ كو١٥ : ١٤، ١٩) .

ولم تكن قيامة المسيح إلى الحياة الخالدة علامة تؤكد قداسته فحسب ، بل هى عهد ضمنى لبنى الإنسان طرًّا بأنهم سيبعثون من قبورهم كذلك . وقد برهن هذا الانتصار الحاسم على الموت ، أعدى أعداء الإنسان كما يبدو ، على أن « المسيح » ليس ابن الله فقط ، بل على أن جميع بنى الإنسان أبناء الله أيضاً . وأى أساس ، يبنى عليه دين ، أمتن وأكثر دواماً من الانتصار على القبر ؟ والواقع أن فكرة خلود الروح هذه كانت من الأسباب الرئيسية لانتصار الديانة المسيحية على الأديان القديمة ، التى كانت ، عند ظهورها ، سائدة فى بلدان البحر الأبيض المتوسط . ذلك لأنها قد صادفت هوى قويًّا فى نفوس أولئك الذين كانوا يمارسون طقوساً دينية تدعو إلى حياة أخرى.

وفى خلال تطور الكنيسة المسيحية نجد أنها عظمت فكرة الخلود كما قررها « المسيح » ، وزخرفتها ، مع بساطتها وأصبحت الحياة فى الآخرة الحياة ذات الألوان ، المحيرة ، المعقدة ، من الجنات والجحيم والإعرافات . وأصبحت الحياة الحاضرة سلسلة لا نهاية لها من الطقوس المقدسة ، مثل ، العماد ، وتثبيت العماد ، والكفارة ، والمسحة ، والقربان المقدس . ويلاحظ أن القربان المقدس أو القداس ، كواحد من الطقوس الشائعة عند جميع المسيحيين ، هو ، فى الواقع ، من الطقوس التخليدية . فهو عند المؤمن برهان ، عن طريق التجربة الغامضة للتناول من طبيعة الإله الأبدى ، على أن الروح خالدة . وذلك وفقاً لوعد « المسيح » الذى قال « من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية . وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق . من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىّ وأنا فيه » (يو ٦ : ٥٤ — ٥٦) .

وانشغال البال بفكرة الحياة الآخرة قد روّج بقوة عن طريق الممارسة الكاثوليكية لتشفع الأحياء نيابة عن الأرواح التى تقيم ، بعد موتها ، فى المطهر . وذلك فى خلال

صلاة الجناز ، أو عن طريق نظام الغفران ، أو صلاة الأفراد . وعلى العكس من ذلك ، فقد يأتى العون ، فى بعض الأحيان ، من الموتى . فإن الكاثوليك يرون أن أرواح الموتى فى قدرتها مساعدة الأحياء عن طريق صلواتهم . فالاحتفال بيوم عيد « كل الأرواح (All Souls Day) ، (٥) فى كل عام ، كاحتفال تذكارى لمن ماتوا ، إن هو إلا صورة لنفس الموضوع . وفى البلاد الكاثوليكية ، نجد ، إلى يومنا هذا ، أن الفلاحين يعتقدون أن أرواح الموتى تقوم بزيارة بيوتهم فى مساء يوم « كل الأرواح » ، ويتناولون طعام الأحياء . ونجد فى « التيرول » (Tyrol) ، مثلا ، أن اللبن وأصنافاً من الكعك توضع على مائدة الطعام خصيصاً لهم . بينما نجد فى « بريتانى » (Britany) ، أن الناس ، الأحياء ، يذهبون زرافات ووحداناً إلى المقابر ، مساء ، ويصبون اللبن ، أو الماء المقدس ، على الأضرحة . ونجد نفس العادات تمارس فى الاحتفال بعيد « يوم كل القديسيين » (All Saint's Day) وهو احتفال تكريمى لقديسى الكنيسة .

وبدراسة الثقافات الغربية ، أيضاً ، فى هذا المجال ، نجد أن فكرة خلود الروح تتضمن فكرة أخرى هى : أن الخيرين من الناس سوف ينعمون ويجازون الجزاء الأوفى على ما قدمت أيديهم ، وعلى ما صبروا وقاسوا من متاعب الحياة الأولى . وأن أعلا مراتب النعيم هى حيث ينعم هؤلاء ، فى الجنة ، برؤية وجه الله ذى الجلال والإكرام . وقد صور « دانتى » (Dante) فى الكوميديا الإلهية ، كل هذا ، فى دقة رائعة . وهذا ما يعنيه المؤمنون إذا ما تحدثوا وهم ، فى نشوة روحية ، عن التمتع بالله أبد الآبدين . ويرى الأغلبية من الناس المؤمنين ، من غير شك ، أن النعيم المقيم والخلود فى الجنة هما الهدف الأول . وأن الله هو المنعم على عباده فى الحياة الأخرى . وعلى الرغم من أننا نرى بعض الناس على استعداد للتضحية فى سبيل الله وعظمته ، وملاقاة العنت فى سبيل تحقيق ذلك ، دون توقع أى جزاء فى الآخرة — نجدهم ، إذ يدعون ذلك ويتحدثون به ، أنهم يتمنون ، فى قرارة نفوسهم ، هذا الجزاء ، أى هذا النعيم المقيم والخلود فى الجنة .

والله هو ، أيضاً ، صاحب الأنعم كلها فى الدار الآخرة . فهو الخالد الكامل الذى ليس له كفواً أحد . وهو الفعال لما يريد ، وهو المثال الخالد لكل ما يرغب

الإنسان فى أن يكوّنه . والله، بالضرورة، جزء من الجنة الخالدة . وفى الجنة الخالدة فقط ، يمكن أن يكون . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : « إن الله هو الجنة روحيًّا ، وأن الجنة هى الله ماديًّا » . ونزيد فنقول : « لا يوجد أى تمييز بين الحياة الأبدية كما نتصورها فى الله ، وبين الحياة الأبدية كما نتصورها فى الجنة ، إلا أن الجنة لها أول ولها عرض ، وأن الحياة الأبدية فى الله قد تركزت فى نقطة واحدة » . ولكن نلاحظ أنه عند مناقشتنا لموضوع التماثل الجوهرى بين الله وبين الخلود ، نجد أن الأولوية ما زالت للخلود . فإن لم يكن خلود لمات الله . ومن الواضح أن فكرة وجود الحياة بعد الموت كان أمراً معروفاً قبل ذيوع وجود فكرة وجود الله بزمن بعيد .

وفى الواقع ، أننا نجد ، بوضوح ، أن فكرة الخلود . هى الهدف الوحيد الذى ، عن طريق الوصول إليه، يستطيع أن يعوض الناس عما يقاسونه من ظلم فى دنيا ما زالت غير عادلة ، وهى الأمل الوحيد عند من يفقدون أحباءهم . وأنه إذا كانت القيامة إلى حياة أخرى طيبة مباركة قانوناً طبيعيًّا ، مثل، القيام من النوم العادى إلى غد غير سعيد ، فلن تكون هناك أية ضرورة إلى الإله المحسن العادل إلى الإنسانية المعذبة . وكذلك لا داعى من وجود إله كى يحفظ القيم الأخلاقية والقيم الاجتماعية العظيمة ، إذا كان الإنسان يعيش أبداً دون أن يموت .

وعلى الرغم من أن ثقة الكثير من الناس فى الله ما زالت قائمة عند حدوث بعض الأزمات فى الحياة الدنيا ، عله أن يمسح بلطفه وإحسانه آثارها ، فإن الأغلبية الساحقة من البشر تعلق أهمية كبرى على وجود حياة أخرى كى ينال الذين أسيء إليهم فى الحياة الدنيا ، وهم الأغلبية الساحقة ، إحساناً بعد إساءة . ونجد من الناحية الأخلاقية أن اختبار « داود » قد برهن على أنه اختبار عام ، أى أن الحياة الدنيا تعامل الخيّر والشرير ، بصفة عامة ، معاملة واحدة . ويبدو أن كلا لا ينال ما يستحقه فيها . ولهذا السبب نجد أن الكاثوليك والبروتستانت ، جميعاً ، لا يزالون يرون ، مع الإيمان بفكرة وجود الله ، أن عدم الإيمان بالحياة الآخرة معناه انهيار الأخلاق فى الحياة الدنيا .

وهناك أسباب أخرى عميقة فى نفس الإنسان تساعد على توضيح احتمال أولوية فكرة الخلود . منها الفرق الملموس بين بدن الإنسان وشخصيته أو روحه . ونجد ،

هنا ، أن الأحلام وحالات الغيبوبة شواهد بينة فى الحياة اليومية المعتادة . ونجد ، أيضاً ، أن الموت أكبر مقنع على هذا . فالشخصية تزول وتختفى ، أين ؟ هذا سر غامض ، ولكن الجسم يبقى صلباً وحقيقة . ومنها صعوبة تصور الإنسان منا أنه غير موجود . ربما نستطيع أن نتصور موتنا وحتى الاحتفال بجنازتنا ، ولكن يلاحظ أننا ، نحن ، الذين نتصور هذا . ونحن ، هنا ، نحاول أن نكون شاهدى عيان لحوادث ما بعد الموت . ومهما بلغ تصورنا للمستقبل ، أو رجوعنا إلى الماضى ، فإننا نكون ، نحن ، المشاهدين للمأساة ، مأساة موتنا . إن هذا المأزق ، الذى يتسم بصورة من حب الذات ، يربطنا ، فى شدة ، بمخالبه، ويستهوينا ، فى أول الأمر ، إلى الاعتقاد الفطرى ، ثم ، أخيراً ، إلى الاعتقاد التلقائى فى حياة الخلود . ومن هذه الأسباب ، أيضاً ، وجود الدافع الفطرى ، فى كل منا ، إلى التعلق بالحياة ، وإلى الفرار من الموت بكل ما نملك من عزم أكيد ، قد تراكمت عوامله على مر الأجيال ، منذ بدء حياة الإنسان ، وفى أثناء تنازعه على البقاء . وقد تضعف هذه الإرادة إلى الحياة أحياناً . ولكنها ، فى الظروف العادية ، تكون هى الشهوة المتحكمة . ونجد الإنسان الواعى ، تحت وطأة تحريضها ، وهو إذ يرى الموت الذى لا مفر منه ، أمامه فى كل مكان وفى كل حين — يحاول أن يتنصل من هذا المصير (٦) .

ولكن يلاحظ أن الدافع الفطرى إلى الخلود الشخصى ، أو الرغبة العامة فى هذا الخلود ، يوحيان بأن الغريزة، غريزة ما ، ولتكن ما تسمى غريزة حفظ النوع ، لها دخل كبير . ذلك لأن تحقيق الخلود الشخصى يشبعها . ولكن نجد أن « وليام أوسلار » (William Oslar) ، وهو شخص له خبرة كبيرة بالأشخاص الذين على وشك الموت ، الأشخاص المحتضرين قد أعلن أن أقلية من هؤلاء كانوا يرغبون ، فى حماس ، فى حياة بعد الموت . وأن أقلية أخرى كانوا يأملون فى الفناء النهائى ، أو العدم . أما الأغلبية من هؤلاء الأشخاص فقد كانوا غير مكترثين . ويرى العالم « إليا ميتشينكوف » (Ilya Metchnikof) ، فى ضوء الاختبار النقدى لكل البراهين والحجج ، الفلسفية منها والدينية ، المتعلقة بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت أن ما يبدو من التبرم والضجر عند الناس ، يرجع إلى فشلهم فى تحقيق إشباع

البواعث الطبيعية فيهم ، إشباعاً كاملا . فإذا ما عاشوا حياة طويلة ناضجة ، ونالوا هذا الإشباع الكامل ، فإنهم يقبلون ظاهرة الموت كنهاية طبيعية للحياة . ولعل طول العمر هذا ، وهذا الإشباع ، أن يحققهما العلم فى النهاية . وحينئذ تتوقف كل رغبة فى الخلود(٧) .

ونلاحظ أن سمات طبيعة الإنسان قد ساعدت على جعل الرغبة فى الخلود ، المحتمل وجودها فى قلب كل إنسان ، تنمو وتتطور . حتى أصبحت ، فى أغلب الأحيان، اتجاهاً عقلياً عند إنسان معين ، أو فى حضارة معينة . وقد جعلت هذه السمات نفسها ، الإيمان بالخلود ، أمراً طبيعياً . بمعنى أنه من الجائز قبوله دون ما تلقين . ويبدو أن الأطفال والبدائيين من الناس يقبلون فكرة الخلود دون أى جدال . فالموت ، وحده ، هو الذى يعلمهم ذلك . ولكن الأطفال والبدائيين من الناس لا يستطيعون قبول فكرة وجود الله بهذه السهولة . وخاصة فكرة وجود الله المتطورة وفقاً لتعاليم الأديان السماوية الداعية إلى التوحيد . أن أى إنسان يستطيع أن يفهم ، فى يسر ، معنى الحياة الشخصية بعد الموت . ولكن يتطلب ، مثلا ، إنساناً حكيما ، فهم مذهب الثالوث المسيحى .

ولا جدال فى وجود ناس وشعوب كانت فكرة وجود الله ، وما زالت ، عندهم ، أهم بكثير من فكرة الخلود . فالله فى التوراة ، مثلا ، أهم كثيراً ، عند اليهود بالقياس إلى الفكرة الضعيفة للحياة بعد الموت . والواقع أنه حيثما ، وعندما ، كانت فكرة الخلود لا تستحق الاهتمام بها ، فإن أهميتها بالنسبة إلى فكرة وجود الله أو وجود آلهة تكون ، بالضرورة ، أقل . ونجد فى كل الأوقات عدداً من الناس ، فلاسفة محترفين كانوا أو غيرهم ، يؤمنون بالله ، ولكنهم لا يؤمنون بالخلود . وعند هؤلاء الأشخاص ، نجد ، بلا شك ، أن لمشكلة الخلود ، وليس الإيمان بالخلود ، نتائج هامة . فكونهم يواجهون شبح الموت فى كل آن ، فإن عليهم أن يصلوا إلى رأى فيه ، وأن يقرروا ما إذا كانوا خالدين أو فانين ؟ وكانت نتيجة ذلك أن قرروا أنهم فانون . وكان العبرانيون القدامى يرون وجود حياة بعد الموت . ولكنها كانت ، فى نظرهم ، حياة غير مشوقة بالمرة . وكان لهذا الاتجاه ، كما هو واضح ، أثر بعيد فى تكوين فلسفتهم العامة إزاء الحياة الحاضرة (٨) .

٢ ــ الحياة بعد الموت عند المصريين القدماء

لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم . ومن الجائز أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت كان يعضده كثيراً ، ويغذيه ، تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهى أنها تحفظ الجسم الإنسانى ، بعد الموت ، من البلى ، إلى درجة لا تتوافر فى أية بقعة أخرى من بقاع العالم . ويؤكد هذه الحقيقة « جيمس هنرى برستد » (James Henry Breasted) إذ يقول : « . . . . فعندما كنت أشتغل بنقل نقوش بلاد النوبة منذ سنين طويلة مضت ، كانت الأحوال كثيراً ما تضطرنى إلى المرور بطرف جبانة فيها قدما إنسان ميت مدفون فى حفرة قريبة الغور ، وقد حسر عن هاتين القدمين وصارتا ممتدتين فى عرض الطريق الذى كنت أمر به ، والواقع أنهما كانتا تشبهان كل الشبه الأقدام الخشنة للعمال الذين كانوا يعملون معنا فى حفائرنا فى تلك الجهة ، ولست أعرف عمر ذلك القبر ، ولكن كل إنسان خبير بجبانات مصر ، قديمها وحديثها ، لابد أنه عثر على جثث بشرية كاملة (أو على أجزاء منها) قديمة جداً ولكنها باقية محفوظة أحياناً إلى درجة تجعلها تشبه ، تماماً ، أجسام البشر الأحياء . ولابد أن مثل تلك المشاهدات حصلت كثيراً للمصريين الأقدمين أيضاً » .

ولابد أن حالة الحفظ التامة المدهشة للأجساد البشرية التى وجد المصرى عليها أجداده الذين كان يكشف عنهم عندما يقوم بحفر قبر جديد ، فى ذلك الوقت ، قد زادت اعتقاده فى بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد ، وأيقظت فى خياله صوراً عظيمة فى تفاصيلها عن عالم الأموات الذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها [٩] .

* * *

وربما كانت المصادفة المحضة هى التى ساعدت على القول باهتمام المصريين القدماء بظاهرة الموت والحياة بعد الموت اهتماماً عظيماً . وذلك لكثرة معلوماتنا عن عقائد المصريين القدماء الجنازية ، وعباداتهم الرسمية . وذلك لقرب الصحراء من

أهل الصعيد ، واتساع الأراضى الفسيحة الخصبة فى الدلتا . فنى الصعيد نجد الصحراء قريبة دائماً ، فساعد ذلك على دفن الموتى ، وفى بناء المعابد الكبرى . فكان الناس يعملون ويعيشون فوق الأرض السوداء ، ولكنهم يدفنون موتاهم فى الرمل عند سفح الجبل للمساعدة على حفظ الجثث من الفناء ، كما بنوا معابدهم عند سفح الجبل نفسه ، وقطعوا أحجارها منه . وهذا هو السبب فى أنه لا يوجد تناسب بين كثرة معلوماتنا عن عقائد المصريين الجنازية ، وعباداتهم الرسمية ، وبين قلة معلوماتنا عن أعمالهم التجارية والإدارية ، أو الاقتصادية والتنظيم الاجتماعى . أى أن ما يتعلق بالموت وتلك الحياة الأخرى كان يجد له مكاناً فى رمال الصحراء التى حافظت عليه حتى الآن . أما الأشياء الأخرى التى كانت تتصل بالحياة اليومية ، فإن مكانها كان فوق الأرض المنزرعة ، فكانت تتعرض للرطوبة ، والتفاعلات الكيمائية المخربة ، وما يجلبه عليها الإنسان من استهلاك أو تحطيم ، وهذا هو السبب فى عدم بقائها . ومن المعلوم أن أكثر ما جاءنا من معلومات عن مصر القديمة إنما عثر عليه مدفوناً فى رمال الصعيد[١٠] .

* * *

وربما كان ما قاله « برستد » عن تربة مصر ومناخها صحيحاً ، وكذلك ما ذكره « فلندرز بيترى » (Flinders Petrie) عن مناخ مصر ، أيضاً ، من حيث اعتداله ، وجفافه ، وما يوحى كل ذلك من أن القاعدة هى الدوام والاستمرار لكل شىء ، ومن ثم لا داعى إلى استثناء الإنسان من هذا الدوام والاستمرار[١١] . وقد يضاف إلى ما جعل المصرى القديم يؤمن باستمرار الحياة بعد الموت ما كان يراه فى الأحلام من أشخاص الموتى يخاطبونه أو يغشون الأماكن التى كانوا يعيشون فيها . وربما كانت هذه الأحلام داعية إلى إيمانه بأن الروح تعيش مستقلة عن الجسد وتبقى بعد الوفاة . فإذا كان جسم الميت سليماً استطاعت الروح أن تعود إليه . ولعل المصريين القدماء كانت لهم مصلحة كبيرة ، باعتبارهم يمارسون الزراعة ويحرصون على زيادة المحصولات ، فى أن يبقى الميت العظيم ، رئيساً كان أو كاهناً أو ملكاً ، لأنهم كانوا يعتقدون أنه هو الذى كان يزيد هذه المحصولات ، فما دام حياً (ببقاء الجثة بعد الموت) لا يكون هناك خطر من نقص الطعام . ويجب أن لا ننسى أن

عامة الأمة لم تكن تعرف التحنيط لأنه كان خاصًّا بالملوك والأشراف .

ومن المؤكد أن نوعاً من الإيمان بحياة ثانية كان أمراً هامًّا بالنسبة إلى المصرى القديم ، فأخذت تزداد عنايته بمدافنه ، وأخذت تزداد أيضاً السلع التى حرص على وضعها معه فى قبره عند دفنه ، وكان أهم ما يعنى به هو الطعام والشراب ، ولكنه اصطحب معه إلى الحياة الأخرى الملابس والحلى والعطور والأسلحة والآلات أيضاً (١٢) .

وقد بدأ أقدم تلك الاعتقادات وأبسطها فى زمن سحيق فى القدم حتى إنه لم يبق لها ذكر بين الآثار التى وصلت إلينا . على أن جبانات سكان وادى النيل فيما قبل التاريخ ، وهى التى كشف عنها وقامت فيها الحفائر منذ سنة ١٨٩٤ ميلادية ، تدل على أن الاعتقاد بالحياة الآخرة بعد الموت قد وصل إلى مرحلة متقدمة من الرقى . وقد حفرت آلاف من هذه القبور الواقعة على طرل حافة وادى النيل الخصب مما يرجع تاريخ أقدمها وجوداً بلا شك إلى الألف الخامسة قبل الميلاد ، فكان يوجد الجسم البشرى فيها ، راقداً فى قاع حفرة لا يزيد عمقها على بضع أقدام وركبتاه مطويتان تجاه ذقنه . ويحيط به متاع ضئيل من أوانى الفخار وآلات الظران (الصوان) والأسلحة الحجرية والأدوات المنزلية الأخرى ، فضلا عن بعض الحلى الساذجة . وكان المفروض من وضع كل هذه الأشياء بجانبه هو بطبيعة الحال إعداد المتوفى لحياة أخرى مقبلة بعد المرت (١٣) .

وإذا كانت أقدم العقائد التى ما زالت ، دائماً ، فى أعماق التفكير المصرى هى أن الروح ، وإن انفصلت عن الجسم ، إلا أنها ما زالت بحاجة إليه لكى تعيش ، فتكون النتيجة أنه إذا باد الجسم هلكت الروح لا محالة . ومن هنا نجد العناية بدفن الجثث . وقد كانت تدفن منذ البدء ملوفة فى الجلود فى حصى الصحراء الجاف الذى كان يجففها ويحفظها . ومع تقدم الحضارة ابتدعوا وسائل للحفظ جعلت الجسم ، وبالتالى ، الروح فى حكم الذى لا يبيد . ويلاحظ أن بقاء الروح « الكا » متمتعاً بالحياة بعد الموت يتطلب شروطاً معينة ، أخرى ، غير حفظ الجسم ، حتى يحل فيه عندما يريد . منها اقتضاء حفظ تمثال فى مكان أمين حتى يجد « الكا » فيه القسمات الشخصية التى فقدتها الجثة ، ومنها أن يزود هذا المكان بالأثاث المنزلى

حتى يعيش فى المقبرة كما كان يعيش على وجه الأرض ، وفضلا عن ذلك . . . العناية ، آخر الأمر ، بشيء هام هو إطعام « الكا » بواسطة المآكل والمشارب يضعونها على مائدة القرابين فى المقبرة وإلا جاع وظمئ ، بل وذهب الأمر بالمترفى إلى حد بعيد بحيث يضطر ، أخيراً ، على حد ما كان يتصوره المصريون إلى أن يأكل من برازه ويشرب من بوله (وهذا أشد ما كان يخشاه المصريون ويرتاعون منه) . وهذه النظريات ، ولو أنها مبهمة غامضة إلى حد كبير ، بل ومتناقضة فى كثير من نواحيها ، إلا أنها كانت تؤثر تأثيراً عظيماً فى حياة المصريين القدماء . وكان من نتيجة هذه العقيدة أن حفظوا أجسام موتاهم ، وأقاموا مقابرهم الخالدة ، وحبسوا أوقافاً لتقديم القرابين للموتى ، واحتفظوا بالتماثيل والأثاث المنزلى فى المقابر . وقصارى القول أنهم قاموا بفعل كل ما أمدنا بمعلوماتنا عن هذا الشعب[١٤] .

* * *

على أن « جيمس هنرى برستد » يرى أنه ليس من الصواب أن نعزو إلى قدماء المصريين الاعتقاد بخلود الروح ، أو أنهم عبروا عن الروح بأنها لا تفنى ، أو أن نتكلم عن « آراء المصرى فى الخلود » بعد الموت . ذلك لأنه يرى أن المصرى القديم كان يتصور أن شخصية الإنسان الحقيقية ، فى الحياة ، تحتوى على الجسم المادى الظاهر ، وعلى الفهم الباطن ، ومقره ، فى اعتقاده ، هو « القلب » أو « الجوف » . وهما التعبيران الرئيسيان عن « العقل » : وتحتوى هذه الشخصية ، أيضاً ، على الجوهر الحيوى المحرك للجسم ويقصد به « النفس » ، كما يلاحظ عند الكثير من الشعوب الأخرى . غير أن هذا الجوهر الحيوى لم يكن مميزاً بشكل ظاهر عن « العقل » . وكان الاثنان يمثلان معاً فى رمز واحد هو طائر له رأس إنسان وذراعاه ، ونجده مصوراً فى المناظر التى على القبور وعلى توابيت الموتى يرفرف على المومية ، ويمد لأنفها بإحدى يديه صورة شراع منشور ، وهذا الشراع هو الرمز المصرى القديم « للهواء » أو « للنفس » . ويحمل فى يده الأخرى علامة هيروغليفية ترمز للحياة . والمصريون يسمون هذا الطائر الصغير الممثل برأس إنسان وجسم طائر « با » .

ويرى « برستيد » على عكس غيره من المؤرخين ، أن « البا » تظهر للمرة الأولى فى الوجود عند موت الإنسان . فقد التجأ القوم إلى كل أنواع الحيل والاحتفالات الدينية ليصبح المتوفى « با » عند موته .

ويرى « برستيد » أنه لما كان من الواضح أن المصرى القديم ، مثلنا ، نحن معشر الأحياء ، لم يكن فى مقدوره أن ينتزع شخصاً آخر من جسمه ، وذلك باعتبار الجسم وسيلة للإحساس ، فإن المصريين لجأوا إلى استعمال حيل متقنة لتزويد الجسم الميت بكل وسائل الإحساس المختلفة بعد أن تنفصل عنه الروح « با » التى تضم كل هذه الإحساسات . وكان المصرى القديم يعتقد أن صاحبه المتوفى موجود فى داخل جسمه ، أو على أقل تقدير لا يزال يملك جسما له مظهره الخارجى كما يملك كل منا جسمه . هذا إذا حاولنا أن نصور المتوفى بصورة ما فى نظر المصرى القديم . ومن ثم كان يظهر المتوفى ، عندما كان يمثل فى الرسوم الجنازية ، كما يظهر فى الحياة الدنيا . وكانت رغبة أقارب المتوفى مطابقة لهذه الأفكار ، وهى أن يضمنوا بعث المتوفى بجسمه ، الذى كان عليه ، مرة أخرى . ومن أجل ذلك كان يقف الكاهن الجنازى مع أقارب المتوفى وأصدقائه عند قبره مجتمعين عند جسمه الهامد ويخاطب المتوفى الراحل هكذا : « إن عظامك لن تفنى ، ولحمك لن يمرض ، وأعضاءك ليست بعيدة عنك » . ومهما تكن هذه الوسائل فعالة فإنها لم تكن تعتبر كافية ، إذ كان من الضرورى للجسم الهامد البعث مرة أخرى والعودة لاستعمال أعضائه وحواسه . وقد كان يتم ذلك البعث على يد إله مقرب أو آلهة مقربة كالإله « حورس » أو الإلهة « إيزيس » ، أو كان الكاهن يخاطب المتوفى مؤكداً له أن آلهة السماء ستبعثه مرة أخرى : « إنها تعيد لك رأسك ثانية ، وتجمع لك عظامك ، وتضم لك أعضاءك ، وتحضر قلبك لجسمك » . غير أن المتوفى ، حتى عندما يبعث بهذه الكيفية ، لم يكن مالكاً لحواسه وقواه العقلية ، ولم تكن لديه قوة لضبط جسمه وأعضائه واستعمالها ، ولذلك كان من الضرورى أن تخترع عدة حيل حتى تصير موميته الصامتة إنساناً حيًّا قادراً على المعيشة فى الحياة الأخرى .

ولما كان المتوفى يعجز عن أن يكون « با » أو روحاً بعد الموت ، كان من الضرورى مساعدته حتى يصير « با » . وكان « أوزيريس » قد صار روحاً بعد موته ، وذلك بعد أن تسلم من ابنه « حورس » عينه التى انتزعها من محجرها « ست » أثناء الشجار الذى قام بينهما ، ولكن « حورس » لما استرد عينه أعطاها لوالده « أوزيريس » فلما تسلمها الأخير صار روحاً . ومن ذلك العهد صارت العادة

المألوفة ، أن يسمى أى قربان يقدم للمتوفى « عين حورس » . وبتلك الكيفية صارت تحدث تلك العين للمتوفى نفس ذلك المفعول كما حدث « لأوزيريس » . ولذلك يقول الكاهن : « قم لخبزك هذا الذى لا يمكن أن يجف ، وجعتك التى لا يمكن أن تصير فاسدة إذ بها تصبح روحاً » . فكأن هذا الطعام الذى قدمه الكاهن يحتوى على القوة الخفية التى تحول المتوفى إلى روح كما حدث أن حولت « عين حورس » « أوزيريس » روحاً .

ومن تلك الحقائق السابقة ، يرى « برستيد » أن المصريين قد ابتدعوا للمتوفى فلسفة نفسية ساذجة حاولوا بها أن يعيدوا إليه حياة الفرد بطرق وعوامل خارجية عن ذاته . وذلك بإشراف الأحياء وبخاصة الكاهن الجنازى الذى كان يعرف الاحتفالات الدينية الضرورية للوصول إلى ذلك الغرض . ولعلنا ، فى هذا الضوء ، أن نقول إنه بعد بعث الجسم لابد من إعادة قوى الإنسان العقلية إليه واحدة فواحدة ، ويتم حصوله عليها ، بوجه خاص ، بصيرورة المتوفى روحاً « با » . وبتلك الكيفية يعود المتوفى إلى الحياة مرة أخرى وهو حائز لجميع قواه التى تساعده على المعيشة فى الحياة الآخرة [١٥] » .

ويبدو أن « سليم حسن » يرى ما يراه « جيمس هنرى برستد » ، فهو يفهم أن شخصية الإنسان الكاملة ، بعد الموت ، كانت تتألف من « البا » والجسم . وكثيراً ما ترى « البا » تحوم فوق الجسم أو تطير إلى داخل القبر لتنضم إلى الجسم ، ومن ثم نرى فى متون الدولة الحديثة عبارة كالآتية : « ليت (با) المتوفى لا تنفصل عن جسمه أبدياً [١٦] » » .

* * *

ونجد أن منطقية عقل المصرى القديم تلفت الأنظار إلى حد بعيد . فنلاحظ عدم المحاباة ، وهو أمر جدير بالاعتبار ، عنده ، بين الأحياء ، وبين الموتى ، وبين الآلهة . فالناس ، والآلهة ، والموتى ، هذه المجموعة من الكلمات ، وغيرها من المجموعات المشابهة ، نجدها غالباً ، إن دلت على شىء ، فهى تدل على صورة من التصنيف التدرجى من الكائنات الإنسانية والكائنات السبرمانية . وتنعكس هذه الصورة فى الكثير من التصورات والمفاهيم الأخرى . كما تنعكس ، أيضاً ،

فى الكثير من صور سلوك الشعب المصرى القديم . فإن هذه الأنواع الثلاثة : الناس والآلهة والموتى ، كلها ، عندها نفس الحاجات ، وتعامل نفس المعاملة .

ويلاحظ أن المعبد كان يسمى ، عند المصريين القدماء ، « قلعة الإله » ، تماماً كما كان يسمى ، عندهم ، بيت الأمير الحى « بيت الأحياء » . ومثل ما كان يوصف القبر ، أيضاً ، وغالباً، عندهم بأنه « قلعة الأبدية » .

وفى الحقيقة نجد أن المعبد والقبر وبيت الأحياء ، كلها ، تتشابه تشابهاً كبيراً[١٧] فجميعها تحتوى على غرف ، حيث صاحبها يعيش ، وحيث يدخر فيها بعض ما يملك . ونلاحظ أن بعض قبور الأسرة الثانية كانت تحتوى، من غير شك ، على حجرات خاصة ، مثل المراحيض . وكما أن لدى صاحب الأرض الغنى من الخدم والحشم ، فإن الآلهة والموتى لديهم من هؤلاء كذلك . فالطبقة العليا من الكهنة كانت تلقب « بخدم الآلهة » ، وكان يخدم الموتى « خدم الكا » أو « خدم الروح ».

وكانت الطقوس الجنازية المقدسة تمارس طبقاً للنموذج الذى تتطلبه الحاجات الإنسانية . فكما يحتاج الأحياء إلى الطعام والكساء ، فكذلك يحتاج ، إلى هذه الأشياء ، الموتى والآلهة . والفرق الوحيد أن على الأخيرين ، لكى ينالوا ما يحتاجون ، أن يعادوا إلى الحياة ، مرة أخرى ، عن طريق الصيغ السحرية : (استخدام إحدى الشعائر كشعيرة « فتح الفم » مثلا) . وكان يصحب تقديم الكساء والطعام الإشارات المناسبة وترتيل العبارات المعينة . وتعيد كل هذه الأمور ، عادة ، ذكرى قصة « أوزيريس » .

وكما أن الآلهة والكائنات الإنسانية قد حكم عليهم ان يعيشوا على الأرض ، فإنهم ، أيضاً ، قد حكم عليهم أن تكون لهم مخاوفهم وأفراحهم ، وأن يتزوجوا زوجاتهم ، وأن ينجبوا أطفالهم . وأخيراً ، قد حكم عليهم أن يموتوا ، وأن تحسب عدد سنين حياتهم على الأرض وتسجل [١٨] .

* * *

وكان الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فى الحياة الآخرة ، حاضراً فى أذهان بناة الأهرام ، غير أنه كان منحصراً فى ذلك الوقت فى تعرض المتوفى للمثول أمام إله الشمس ، بصفة كونه قاضياً ، وذلك استجابة لطلب إنسان قد أخطأ الميت فى

حقه ، لا ليحاسب حساباً شاملا . فكان الاعتقاد القائم إذ ذاك أنه إذا لم يطلب الإنسان للمحاكمة بتلك الصفة فإنه من المحتمل أن لا يتعرض ، فى الآخرة ، لأى حساب آخر . وبعد عصر الأهرام ببضعة قرون ، نجد أن ذلك الاعتقاد قد أخذ يحدد ويعين بحالة أوضح مما كان عليه من قبل .

فنجد أن بعض النصائح الموجهة إلى الملك « مريكارع » كان متأثراً تأثيراً عميقاً بالحقيقة القائلة : إنه كان حقًّا حتى على الملك نفسه أن لا يغفل عن تبعته فى عالم الآخرة عن حياته فى هذه الدنيا من الناحية الأخلاقية ، فنجد ، مثلا ، هذه النصيحة : « إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المخطئ لا يتسامحون فى ذلك اليوم الذى يحاسبون فيه الشرير وقت تنفيذ الحكم . . . ولا تركنن إلى طول الأيام ، لأنهم ينظرون (يعنى القضاة) إلى مدى حياة الإنسان كأنها ساعة واحدة[١٩] . والإنسان يعيش بعد الموت وأعماله تكوم بجانبه كالجبال . لأن الحياة الأخرى أبدية ولا يهمل أمرها إلا الغبى . أما من يصل إليها دون أن يرتكب إثماً فإنه سيبقى هناك كإله يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود (يعنى الأموات البررة) » .

وإذا كان الإنسان يعد لنفسه قبراً فى الجبانة فإن « مريكارع » كان يذكره والده بأن يقيم قبراً لنفسه « بصفته إنساناً مستقيم الحال وبصفته إنساناً أقام العدل (يعنى ماعت) لأن ذلك هو الذى يركن القلب إليه » .

ويقول الفلاح الفصيح ، الذى لا صديق له ، « لمدير البيت العظيم » ، عند مرافعته عن نفسه مطالباً إياه بتوخى العدالة « احذر إن الأبدية تقترب » .

وقد نقش « أمينى » أمير مقاطعة « بنى حسن » العظيم ، على باب قبره ، سجل أعماله الصادرة عن العدالة الاجتماعية فيما يختص بمعاملته لرعيته ، راجياً أن يكون ذلك السجل خير جواز مرور يتخذه للذهاب فى سفره إلى عالم الآخرة .

وقد ملئت محاجر المرمر بجهة « حتنوب » ، الواقعة فى الصحراء الشرقية خلف « تل العمارنة » بالنقوش التى دونت فيها حياة أمراء ذلك العهد الإقطاعى الذين جاوروا تلك البقعة ، حيث ذكروا مراراً وتكراراً ما كانوا عليه من حب الخير والعدالة . ويمثل هذا التكرار دوّن أولئك الرجال الذين عاشوا فى العهد الإقطاعى فوق مقابرهم ما كانوا يعزونه لأنفسهم من الأخلاق الفاضلة . فيقول موظف من

موظفى ذلك العصر اسمه « سسنينف » فى نقش على ناووسه « أنه أقام العدالة وكان يمقت الباطل ، الذى لم يره » .

وتبين لنا « متون التوابيت » ، بجلاء ، أن الشعور بالمسئولية الخلقية فى عالم الآخرة قد تعمق تعمقاً عظيما فى نفوس القوم منذ عصر الأهرام إلى ذلك الزمن . فنجد أن موازين العدالة ، التى كثيراً ما ذكرها ذلك « الفلاح الفصيح » فى تظلمه ضد « مدير البيت العظيم » قد صارت إذ ذاك تحتل مكانة واقعية عظيمة ، ممثلة فى مشاهد حساب الآخرة ، حيث يقول قائل للمتوفى : « إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك . إنك تصعد . . وذنبك مغفور وظلمك قد محى بأيدى أولئك الذين يزنون بالموازين فى يوم الحساب » .

وقد كان من الممكن أن يتحلى المتوفى بالأخلاق الفاضلة الحقة التى تشبه فى استقامتها كفتى الميزان اللتين لا تحيدان . ومن ثم نجد « متون التوابيت » تقول : تأمل أن فلاناً هذا (إشارة إلى المتوفى) هو موازين « رع » التى يوزن بها الصدق (يعنى الحق) . وهنا يتضح لنا لمن كانت موازين الصدق هذه ؟ ومن هو ذلك القاضى الذى يشرف عليها ؟ فنجده ، كما كان الحال قديماً ، « إله الشمس » الذى كان قد حوكم أمامه نفس الإله « أوزيريس » . وكانت هذه المحاكمة تعقد ، فى ذلك الحين ، بحجرة القارب الشمسى .

وقد صار المطلب الخلقى الذى يشترطه القاضى الأعظم من الأمور الطبيعية المفهومة . ولذلك يقول المتوفى : « إنه يحب الحق ويكره الباطل ، وهو الذى تسير الآلهة فى سبيل عدالته المحبوبة » . وعندما يدخل المتوفى تلك السبل الإلهية الحقة يكون ، بداهة ، قد ترك وراءه الرذائل الخلقية ، ولذلك يقول المتوفى أيضاً : « إن خطيئتى قد أقصيت عنى ومحى إثمى ، ولقد طهرت نفسى فى تينك البحيرتين العظيمتين اللتين فى أهناسيا » .

وكثيراً ما نصادف تلك الحمامات التطهيرية الرسمية مذكورة فى « متون الأهرام » وقد صارت الآن تدل ، بوضوح ، على معنى خلقى . حيث يقول المتوفى محدثاً عن نفسه : « إنى أسير فوق الطريق أغسل فيها رأسى فى بحيرة الحق » (٢٠) .

وكثيراً ما نجد المتوفى يقرر مراراً أن حياته كانت نقية ، إذ يقول :

« إنى إنسان أحب الحق ، وما كرهته هو الباطل » .

« إنى أقعد بريئاً وأقوم بريئاً » .

« لقد أقمت العدل ومحوت الباطل » .

ولا شك أن انتشار عبادة « أوزيريس » التى كانت آخذة فى الازدياد له علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع ، الذى صار الآن عامًّا ، بأن كل روح لابد أن تلقى ذلك الحساب الخلقى العسير الذى ينتظرها فى الآخرة .

ويلاحظ أنه لم يكن للعقل اسم فى اللغة المصرية القديمة غير كلمة « القلب » القديمة . وفى عصر الأهرام كان يذكر « القلب » على أنه مركز المسئولية والإرشاد « إن المستمع (يعنى إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذى يحبه الإله ، أما الذى لا يصغى فهو الذى يبغضه الإله . والقلب هو الذى يجعل صاحبه مصغياً أو غير مصغ . وحظ الإنسان الحسن هو قلبه » . كما نجد فى نصائح « بتاح حتب » ، أيضاً ، أن قلب الرجل قد صار دليله ، بل فى الواقع قد صار ضميره . على أن القلب الإنسانى صار يعتبر ، فى عهد الدولة الحديثة ، أكثر من مستمع مجيب إلى النصيحة الطيبة ، بل صار أكثر من مرشد إلى حسن الحظ . وأصبح المصرى القديم ، حينئذ ، شديد الحساسية ، بدرجة لم يصل إليها من قبل ، لما كان يوحى به ذلك الوازع الباطنى المنبعث من قلبه ، وهو الذى سمى « ببعد نظر مدهش ، "إله المرء". ولما صار المصرى القديم يشعر بسلطان ذلك الوازع القلبى شعوراً كاملا أخذ ، إذ ذاك ، يلبس كلمة "القلب" معنى أوفى حتى صار أقرب بكثير ، فى عصر الأهرام ، من مدلول كلمتنا . . . الضمير » [٢١] .

* * *

وقد لعب السحر ، فى الحياة الآخرة ، عند المصريين القدماء ، دوراً هامًّا . ويبدو أنه كان هناك مفهومان مميزان عن حياة الآخرة عندهم ، هما : مفهوم المذهب الشمسى ، ومفهوم المذهب الأوزيرى . وقد شاب هذين المفهومين ، بمرور الزمان ، بعض الغموض .

فالمتبعون للمذهب الشمسى كانوا يعتقدون فى أن أرواح الموتى تمر فى القسم الأول من الليل ، فيرتل المفضلون منهم ، الصيغ السحرية الملائمة ، التى تحض على

طاعة الآلهة ، ومن ثم يسمح لهم بدخول مركب الإله « رع » . ونجد ، فى مقابر هؤلاء ، نماذج من مراكب الشمس . ويعنى دخول مركب الإله « رع » العروج إلى السماء ، والتنعم ، هناك بجنة الخلد .

وكانت هذه الجنة السماوية وقفاً على الملك ومن سبقه ، لأنهم كانوا يعدون أولاد « رع » . أما عامة الشعب فكان مأواهم الأرض . ويلاحظ أن هذا الامتياز الخاص بالملك ، أخذ يشاركه فيه ، فى نهاية الدولة القديمة ، الأسرة المالكة ورجال البلاط بوصفهم أهل حاشيته . ثم لم يمض وقت طويل حتى نهض عامة الشعب عن بكرة أبيهم ، وقاموا بثورة اجتماعية دينية ، وطالبوا بالتمتع بالآخرة السماوية ، فأصبحت حقاً مشاعاً لكل الشعب على السواء . وبعبارة أخرى أخذت المبادئ الديمقراطية الدينية تنتشر بين الأهلين وبخاصة حرية التمتع بالجنة السماوية . غير أن هذا الانقلاب الدينى ، على ما يظهر ، لم يأت فجأة ، بل أتى تدريجياً . إذ يلاحظ ، فى بعض نقوش كبار الموظفين ، فى عهد الأسرة السادسة ، أن المتوفى الشريف ، كان يسمح له أن يقوم بالسياحة السماوية التى كان يقوم بها الفرعون ، فى سفينة الشمس ، مع الإله « رع » . ومن ثم يفهم أنهم لم يحرموا حق التمتع بالجنة السماوية . والواقع أن هذا التمتع الذى أصابوه كان تمتعاً محدوداً . ذلك لأنهم كانوا يذهبون ، فعلا ، إلى جنة السماء . ولكن بوصفهم أتباع الفرعون ، يقومون له بمثل الخدمات التى كانوا يؤدونها له فى عالم الدنيا . فهم بهذا الوضع ، كانوا لايزالون ، فى منزلة الخدم للفرعون . ولهذا صحبهم الفرعون معه . أما باقى طبقات الشعب فلا نعلم شيئاً عنهم ، والظاهر أنهم كانوا محرومين من التمتع بالجنة العلوية فى خلال الدولة القديمة .

ونجد بعض التلميحات فى « متون الأهرام » ، تساعد على معرفة صورة عن متاع جنة الفراعنة السماوية ، تلك الجنة التى كانوا يغارون عليها ، وحرموها على أفراد شعبهم فى عهد الدولة القديمة . وهى التى حارب الشعب للحصول عليها إلى أن ظفر بها من بين براثن أولئك الملوك .

وإذا استمعنا لما يقال للملك ، نقلا عن «متون الأهرام » (بردية رقم ٨١٥) ، نجد : « هل تريد أن تحيا ؟ يا حورس ، يا من يسيطر على حربة الصدق (وهى « الحربة التى لا تدع أى شخص أن يمر بباب الجنة غير الصادقين المبرئين أمام

« الله » ، إذا كان الأمر كذلك ، ينبغى عليك أن لا تغلق مصراعى باب السماء ،
« ويجب عليك أن لا تحمى عقبه (أى عقب الباب) ، وخذ روح « ببى » إلى
« هذه السماء بين المنعمين حول الآلهة ، والذين يحمون الإله ، وهم يتكئون على
« صولجاناتهم ، وهم الذين يحرسون صعيد مصر ، والذين قد ارتدوا أحسن الملابس
« الكتانية الأرجوانية ، والذين يأكلون التين ويشربون الخمر ، ويتضمخون بأحسن
« العطور ، وعند ذلك سيتكلم الروح عن "ببى" أمام الإله الأعظم ،
« ويسمح لـ "ببى" أن يصعد إلى الإله العظيم » .

ويرى « سليم حسن » أن الإشارة إلى وجود حارس لباب الجنة ممثلا فى الإله « حورس » المسلح بحربة سحرية فى يده استعداداً لمنع أى فرد من الدخول فيها غير المبرئين ، هى أقدم إشارة عن وجود حارس لباب الجنة نجده مذكوراً فى كتب الديانات السماوية : « فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (تك ٣ : ٢٤) . وجاء فى القرآن الكريم :
« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » (٨ لـ الجن ٧٢) .

ويرى « سليم حسن » ، أيضاً ، أن الجنة التى وصفتها لنا « متون الأهرام » هى صورة من حياة الفرعون الدنيوية نقلت إلى عالم السماء لتمثل حياة « رع » فى السماء ؛ وهى الحياة التى كان يعيشها على الأرض قبل أن يرفع نفسه إلى السماء . فنجد فيها الإله الأعظم محاطاً برجال بلاطه الذين يحملون ألقاباً مثل الألقاب التى كانوا يحملونها فى الحياة الدنيا ، ويعيشون فى نعيم ، فيلبسون الأرجوانى (ولباسهم فيها حرير) ، وطعامهم فيها التين ، وشرابهم الخمر ، وشذاهم العطور . ولا نزاع فى أن هذه الصورة لها نظائرها فى القرآن الكريم (٢٢) .

* * *

أما مفهوم اليوم الآخر ، فى المذهب الأوزيرى ، فقد صادف هوى أكثر ، كما صادف دواماً ، لدى عقل المصرى القديم . ولقد لعب السحر ، أيضاً ، فى هذا المجال ، دوراً هاماً . فنجد ، منذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، أن المصرى كان يضع مع المتوفى بردية تحتوى على عدد عظيم من التعاويذ والصيغ الدينية . وكان الغرض منها تسهيل الطريق للمتوفى حتى يصل إلى جنة « أوزيريس » . وهذه الجنة

هى قرين لإقليم الدلتا . حيث يوجد ، كما يبدو ، الأصل المادى لها . ولكن يجب على روح المتوفى ، قبل الوصول إلى هذه الجنة ، أن يعبر طريقاً شاقًّا تكتنفه المخاطر . ويلاحظ أن مجال نفوذ « أوزيريس » كان فى عالم الآخرة السفلى . وأن جنته كان موقعها فى الغرب . وعند وصول الروح إلى مملكة « أوزيريس » فلا يعنى هذا انتهاء الرحلة . فقد كان على هذا الروح ، قبل أن يشارك السعداء الآخرين الذين سبقوه إلى الجنة ، أن يمر بامتحان قاس أمام إله الآخرة « أوزيريس » ، ونعنى بذلك أنه كان لابد أن يحاكم أمام محكمة العدل فى الآخرة ، عن كل أعماله فى عالم الدنيا . وقد خصص الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من « كتاب الموتى » لهذا الغرض ، ويعتبر أهم فصل فيه لأنه يضع أمامنا صفحة جديدة عن المسئولية الخلقية للفرد أمام ربه والناس . ويعد هذا الفصل ، فى الواقع ، أهم وثيقة وصلت إلينا من العالم القديم عن مقدار ما كان عليه الإنسان من رقى من الوجهة الخلقية . ويرى « سليم حسن » ، دون ما مبالغة ، أن هذا الفصل كان الأساس الذى بنيت عليه كل ديانات العالم التى أتت بعده . « إذ تجد فى كلمات هذا المتن أن المصرى أخذ يشعر فيه بحساب الآخرة بصورة تدل على نموه العقلى وانبثاق فجر الضمير فى صدره » .

ولدينا ثلاث روايات مختلفة عن الحساب فى الآخرة عثر عليها فى أتم اللفائف البردية وأحسنها التى وصلت إلينا للآن . وكانت هذه الروايات ، فى الأصل ، بلا شك ، مستقلة بعضها عن البعض الآخر .

وتبتدئ الرواية الأولى هكذا « فصل فى دخول قاعة الصدق (الحق) » ، وهى تحتوى على ما يقوله المتوفى عند الوصول إلى قاعة الصدق ، عندما يطهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التى اقترفها . ثم يوجه نظره إلى وجه الإله ويقول : « سلام عليك أيها الإله العظيم رب الصدق ، لقد أتيت إليك يا إلهى وجىء بى إلى هنا حتى أرى جمالك . إنى أعرف اسمك ، وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلهاً الذين معك فى قاعة الصدق هذه . وهم الذين يعيشون على الخاطئين ، ويلتهمون دماءهم ، فى ذلك اليوم الذى تمتحن فيه الأخلاق أمام "وننفر" (أوزيريس) » . ثم يأخذ المتوفى ، بعد ذلك ، يعدد الخطايا التى لم يرتكبها فيقول :

– انظر .. . لقد أتيت إليك .

– إنى أحضر العدالة إليك ، وأقصى الخطيئة عنك .

– إنى لم أرتكب ضد الناس أية خطيئة . . .

– إنى فى مكان الصدق هذا لم آت ذنباً .

– ولم أعرف أية خطيئة .

– ولم أرتكب أى شىء خبيث . . .

– وإنى لم أفعل ما يمقته الإله .

– وإنى لم أبلغ ضد خادم شراً إلى سيده .

– وإنى لم أترك أحداً يتضور جوعاً ،

– ولم أتسبب فى إبكاء أى إنسان .

– وإنى لم أرتكب القتل ،

– ولم آمر بالقتل .

– وإنى لم أسبب تعساً لأى إنسان .

– وإنى لم أنقص طعاماً فى المعابد ،

– وإنى لم أنقص قربان الآلهة .

– وإنى لم أغتصب طعاماً من قربان الموتى .

– وإنى لم أرتكب الزنا .

– وإنى لم أرتكب خطيئة تدنس نفسى فى داخل حدود بلدة الإله الطاهرة .

– وإنى لم أخسر مكيال الحبوب .

– وإنى لم أنقص المقياس .

– وإنى لم أنقص مكيال الأرض .

– وإنى لم أثقل وزن الميزان .

– وإنى لم أحول لسان كفتى الميزان .

– وإنى لم أغتصب لبناً من فم طفل .

– وإنى لم أطرد الماشية من مراعيها .

– وإنى لم أنصب الشباك لطيور الآلهة ،

— وإنى لم أتصيد السمك من بحيراتهم (أى الآلهة) .

— وإنى لم أمنع المياه عن أوقاتها .

— وإنى لم أضع سداً للمياه الجارية .

— وإنى لم أطفئ النار فى وقتها (أى عند وقت نفعها) .

— وإنى لم استول على قطعان هبات المعبد .

— وإنى لم أتدخل مع الإله فى دخله .

بعد هذه الاعترافات ننتقل إلى منظر يمثل حساب المتوفى حيث نجد القاضى ، وهو « أوزيريس » ، يساعده الاثنان والأربعون إلهاً فى محاسبة المتوفى . وهؤلاء شياطين مخيفة يحمل كل منهم اسماً بشعاً ، مثل آكل الظل الذى يخرج من الكهف ، وكاسر العظام الذى يخرج من أهناسيا المدينة . . . إلخ . وكان المتوفى يذهب إلى كل واحد من هؤلاء المخلوقات ويوجه إليه اعترافاً ببراءته من خطيئة معينة . وتتناول هذه الاعترافات ، الاثنان والأربعون ، كثيراً من نفس موضوعات الإقرارات عن الخطايا التى لم يرتكبها المتوفى المذكورة آنفاً .

ويذكر المتوفى ، بعد ذلك ، براءة نفسه أمام هيئة المحكمة العظمى ، كلها ، بوجه عام ، فيقول : « السلام عليكم أيها الآلهة ، إنى أعرفكم ، وأعرف أسماءكم ، وإنى لم أسقط أمام أسلحتكم. لا تبلغوا عنى شراً لذلك الإله الذى تتبعونه . . . » ثم يأخذ ، بعد ذلك ، فى سرد مناقبه ، وأعماله الصالحة ، الدالة على خلقه العظيم .

أما الرواية الثالثة عن المحاكمة ، فهى التى أثرت أعمق الأثر فى نفس المصرى ، وهى أشبه بتمثيلية « أوزيريس » فى العرابة المدفونة ، إذ ترسم لنا المحاسبة الأخروية ، كما حدث بالموازين . فنشاهد الإله « أوزيريس » جالساً فوق عرشه ، فى نهاية قاعة المحاكمة ، وخلفه كل من الإلهتين « إيزيس » ، و « نفتيس » . وقد اصطف ، على طول أحد جوانب القاعة ، الآلهة التسعة ، وهم المعروفون بتاسوع عين شمس ، يرأسهم « إله الشمس » ، وهم الذين ينطقون فيما بعد بالحكم . على أن ذلك المنظر الثالث من المحاكمة ، كان فى بدايته شمسى الأصل ، وهو الذى يحتل فيه « أوزيريس » الآن المكان الأول ، فيشاهد فى وسط المنظر موازين « رع » التى يزن بها الصدق . مطابقاً لما جاء فى مذهب « رع » . ولكن المحاكمة التى ظهرت فيها

تلك الموازين ، وقتئذ ، صارت أوزيرية الصيغة ، حيث كانت الموازين فى يد الإله الجنازى ذى رأس ابن آوى ، « أنوبيس » ، « فاتح الطرق » الذى يخرج من قاعة المحاكمة ليقود المتوفى ، وهو ممسك بيده ، أمام « أوزيريس » . وعند دخول المتوفى لا ينطق أحد بكلمة . ويجلس ملك الموتى على عرشه فى مكان معتم ، واضعاً التاج على رأسه . ويمسك فى إحدى يديه بعصا ، وفى الأخرى بمضرب الحنطة . فهو القاضى الأعلى للموتى . ومن أمامه يوضع الميزان العادل ، حيث سيوزن عليه قلب الرجل المتوفى . ويقف « تحوت » كاتب الآلهة بجوار الميزان ، وفى يده القلم والقرطاس حتى يسجل النتيجة . ويكون من بين الحاضرين كل من « حورس » والإلهة « ماعت » ، إلهة الحق والعدالة . ويوجد ، خلف « تحوت » حيوان بشع الهيئة يسمى الملتهمة ، له رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخرة فرس البحر ، ويكون متحفزاً لالتهام الروح إذا وجدت ظالمة (٢٣) . ويجلس القرفصاء، حول القاعة المخيفة ، الاثنان والأربعون مارداً ، مستعدين ، لتمزيق الشرير إرباً إرباً .

وحيث يسود السكون الرهيب ، يبدأ الروح الزائر ، مرة ثانية ، فى ترتيل اعترافاته . ولا يعلق « أوزيريس » على ذلك بشيء . ثم يلاحظ الروح ، وهو يرتعد خوفاً وهلعاً ، الآلهة وهم يزنون ، فى ترو ، قلبه فى الميزان . بينما تكون الإلهة « ماعت » ، إلهة الحق والعدالة ، أو رمزها ، وهو ريشة نعام ، موضوعة ، فى كفة الميزان المقابلة .

ويفزع الروح ، مرتعداً ، إلى قلبه ، حتى لا يشهد ضده ، قائلا : « ياقلب الذى كنت قلبى ، لا تقل : لاحظ الأشياء التى فعلها ، اسمح لى بأن لا أظلم ، فى حضرة الإله العظيم » .

وإذا تبين أن القلب لم يكن لا ثقيلا ولا خفيفاً ، فإن المتوفى تبرأ ساحته . وعندئذ يسجل « تحوت » حكم المحكمة ببراءته ، ويعرض النتيجة على « أوزيريس » ، الذى يعطى الأوامر لكى يعود القلب إلى المتوفى المقدم للمحاكمة . ثم يهتف ملك الموتى قائلا : « إنه فاز بالنصر ، دعوه الآن ، يسكن مع الأرواح ومع الآلهة فى حقول السعداء » .

ويذهب المتوفى ، بعد إطلاق سراحه ، وهو فرحان ، ليتطلع إلى عجائب العالم

السفلى ، فالمملكة المقدسة أعظم من مصر وأفخم ، حيث تعمل الأرواح ، وتصيد ، وتحارب الأعداء . وحيث تكون لكل امرئ حصته من الواجبات ، فيجب عليه أن يفلح الأرض ، وأن يحصد الحب الذى ينمو بوفرة ، وبارتفاع شاهق . وحيث المحصول لا يخيب أبداً . وحيث تكون المجاعة والأحزان والأكدار غير معروفة .

وإذا رغبت الروح فى العودة إلى زيارة المناظر المألوفة على وجه الأرض ، فإنها تدخل جسم طائر ، أو جسم حيوان ، أو ربما تنضر فى زهرة . وربما رغبت الروح فى زيارة قبرها فى شكل « البا » ، فتحيي المومىة ، وتتطلع إلى المناظر التى كانت مألوفة ، وعزيزة ، فى الأيام السالفة .

أما أرواح الموتى التى يدينها « أوزيريس » بسبب الذنوب التى اقترفتها على وجه الأرض ، فهى عرضة للعذاب المريع ، قبل أن يبيدها المردة الذين يجلسون القرفصاء منتظرين ، فى قاعة المحاكمة الرهيبة ، الصامتة (٢٤) .

* * *

ويلحق بـ « كتاب الموتى » كتب أخرى ، كان لابد للمتوفى أن يستعين بها فى سياحته فى العالم السفلى . وأهم هذه الكتب هى :

ـ كتاب ما فى عالم الآخرة .

ـ وكتاب البوابات (أى البوابات التى تفصل أقاليم عالم الآخرة الواحد عن الآخر) .

ـ كتاب الليل (أى كتاب الأقاليم التى تقابل ساعات الليل الاثنتى عشرة) .

ـ كتاب الكهوف (أى كهوف الآخرة التى كان على المتوفى أن يجتازها فى الآخرة) .

وأهم هذه الكتب التى تصف لنا مملكة الأموات ، هو كتاب « ما فى عالم الآخرة » . وعلى حسب ما جاء فى هذا الكتاب نفهم أن العالم السفلى قسم اثنى عشر إقليماً منظمة نظام المقاطعات المصرية ، وعلى رأسها إله ، ولها عاصمة مسكونة بالآلهة والجن وأرواح الموتى ، ويجرى فيها نهر عظيم هو صورة طبق الأصل من نهر النيل . ويربط أجزاءها ببعضها البعض ، وعلى هذا النهر تسبح الشمس ، عندما تغرب ، كل ليلة ، فى العالم السفلى . وقد مثلت فى صورة إنسان برأس كبش ، ويعتبر أنه ميت

غير أنه لم يفقد قوة إشعاعه أو الضوء الذى يرسله عندما يخترق هذا العالم المظلم ، وبذلك يبعث الفرح والروح فى سكان هذا العالم كل ليلة ، وبمجرد ظهور سفينة الشمس هذه ، فى العالم السفلى ، يهرع القوم إلى الشاطئ مهللين حامدين من أحضر إليهم النور . غير أن سير السفينة لم يكن سهلا ، بل كانت تعترضها عقبات كان يذللها سكان هذا العالم . غير أن مساعدتهم لم تكن كافية ، وعلى ذلك فإن الشمس كانت تضطر إما إلى تحويل سفينتها إلى ثعبان ، أو أن تلجأ إلى التعاويذ السحرية ، تعاويذ « إيزيس » . وكانت العقبات التى تعترض الشمس هى التى كانت تقابلها فى إقليم الساعة السابعة من ساعات الليل . إذ هناك يسيطر « أبوفيس » فى صورة ثعبان هائل . ولأجل أن يتفادى إله الشمس خطر هذا الثعبان كان يغير طريقه وخاصة أن « أبوفيس » كان يشرب ماء النهر كله ، وبذلك تتعطل السياحة فى النهر . وبعد أن يتغلب على هذه العقبة ، بالسحر ، تصبح الملاحة فى النهر سهلة . وفى الساعة العاشرة يوضع بجوار الإله « جعل » وهو رمز البعث ، وبعد ذلك بقليل نجد أن الحبل الذى كان قد استعمل لجر السفينة قد تحول إلى ثعبان . وفى هذا المكان يعاقب أعداء « أوزيريس » . وفى آخر كهف تمر به السفينة ويسمى « نهاية الظلام » يتم التحول « أى أن الإله الذى فى صورة إنسان ورأس كبش » يتحول إلى « جعل » ويظهر فى صورة الإله « خبرى » (Khopri)[٢٥] فى مشرق السماء ، وهذا هو البعث الجديد الظاهر للنهار ، وهكذا تتكرر الظاهرة أبدياً ، موت ونشور أبدى [٢٦] .

* * *

ويرى « جيمس هنرى برستد » أنه من المحتمل أن التاريخ القديم لتتابع كل من المذهب الشمسى والمذهب الأوزيرى يتلخص فى أن المصريين القدماء كانوا فى عهد ما قبل التاريخ يعتقدون اعتقاداً ساذجاً بوجود عالم سفلى للأموات مآل كل الناس إليه حتماً . وخص الملوك بآخرة سماوية جليلة . خصوا بها فى أول الأمر ، ثم شملت ، فيما بعد ، جميع عظماء القوم وأشرافهم ، ثم انتهى أمرها ، أخيراً ، بأن صارت عالماً شمسياً لهؤلاء الموتى .

ولما حل نفوذ « أوزيريس » ، الذى كان آخذاً فى الازدياد ، محل الآلهة الجنازيين ، الذين كانوا أقدم منه ، صار هو بذلك رب العالم السفلى .

وكان من نتائج ذلك أن أخذ « أوزيريس » وعالمه السفلى يناهضان الآخرة الشمسية السماوية في سلطانها . وندرك في ظهور هذين المذهبين ، جنباً إلى جنب ، الكفاح الطويل الذى قام بين دين حكومى ودين شعبى ، لأول مرة ، فى تاريخ العالم البشرى .

وقد انتهى الأمر بصبغ العقائد الجنازية الشمسية والسماوية بصبغة أوزيرية . ومع ذلك فإن الحياة الآخرة بقيت سماوية . أى أن مكانة إله الشمس ، فى تلك العقائد الجنازية المركبة ، كانت لا تزال هى المكانة الأولى . أما عالم « أوزيريس » السفلى الذى ظهر فيما بعد ، فكان ، ولا يزال ، يعد فى مركز ثانوى ، بصفة قاطعة ، فى تلك العقائد الجنازية الملكية . أما عامة الشعب فكان إله الشمس ، فيما بعد ، فى نظرهم ، ينزل إلى العالم السفلى ليضىء على قوم « أوزيريس » فى مملكة الأموات . ويعتبر ذلك من أهم البراهين الدامغة الدالة على قوة « أوزيريس » عند عامة الشعب . أما فى لاهوت الملك والمعابد الحكومية ، فكان « أوزيريس » يرفع إلى السماء . ومع أنه كان مصبوغاً ، هناك ، بالصبغة الشمسية ، فإن مذهبه كان هو الآخر يصبغ العقائد الشمسية الخاصة بمملكة الأموات السماوية بعض الشىء بصبغة العقائد الأوزيرية . فكانت نتيجة ذلك أن حدث ارتباك كان لابد من حدوثه عند اختلاط تينك العقيدتين إحداهما بالأخرى .

على أن مثل تلك المعتقدات الدينية المتضاربة لم يكن يشعر المصرى القديم من جراء تضاربها بأى قلق أكثر مما كانت تشعر به أية حضارة قديمة أخرى باستبقاء طائفة من عقائدها الدينية ، جنباً إلى جنب ، مع عقائد أخرى تخالفها أو تتناقض معها كل التناقض . ولم تفلت العقائد المسيحية نفسها من تلك المتناقضات ، كما أنها لم تفلت من تغلغل نفوذ الآراء المصرية القديمة عن الحياة الآخرة فيها . فنجد الآراء المصرية القديمة عن العالم السفلى وأبوابه الجهنمية وبحار اللهيب ، قد قامت بدورها فى تصوير جهنم الحامية فى الديانة المسيحية . كما أنه من المحتمل أن مملكة إله الشمس السماوية بما فيها من شجرة الحياة هى أصل فكرة أهل الغرب عن الجنة التى فى السموات ، وهى التى ظهرت ، فيما بعد ، فى الصور المسيحية الفنية واضحة خلابة (٢٧) .

٣ ـ الحياة بعد الموت عند المصريين المسيحيين

قد عرفنا ، فى الفصل السابق ، كيف يموت الإنسان ، عند المسيحيين المصريين ، إذ يقول الحكيم : « فيرجع التراب (أى الجسد) إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) . أما أين تكون النفوس بعد الموت فقد ذكر الكتاب أن أرواح الأبرار تكون ، بعد الموت ، فى الفردوس مع « المسيح » لتأخذ عربون السعادة والمجد : « وصوت من السموات قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » (مت ٣ : ١٧) ، « فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم » (لو ١٦ : ٢٢) ، «فقال له يسوع الحق أقول إنك اليوم تكون معى فى الفردوس » (لو ٢٣ : ٤٣) ، « وكل من كان حيًّا وآمن بى فلن يموت إلى الأبد . أتؤمنون بهذا ؟ » (يو ١١ : ٢٦) ، « وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتى أيضاً وآخذكم إلىّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً » (يو ١٤ : ٣) ، « لأننا نعلم أنه إن نقض بيت خيمتنا الأرضى فلنا فى السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى . فإننا فى هذه أيضاً نئن مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا الذى فى السماء . وإن كنا لابسين لا نوجد عراة . فإننا نحن الذين فى الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكى يبتلع المائت من الحياة . ولكن الذى صنعنا لهذا عينه هو الله الذى أعطانا أيضاً عربون الروح . فإذا نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب . لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان . فنثق ونسر بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب » (٢ كو ٥ : ١ ـ ٨) ، « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح » (فى ١ : ٢٣) ، « الذى مات لأجلنا حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعاً معه » (١ تس ٥ : ١٠) .

أما أرواح الأشرار فتحفظ ، بعد الموت ، فى سجن الظلام إلى حكم اليوم العظيم . « فرفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب » (لو ١٦ : ٢٣) ، « الذى فيه أيضاً ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن » (١ بط ٣ : ١٩) ، « يعلم الرب أن

ينقذ الأتقياء من التجربة ويحفظ الأئمة إلى يوم الدين معاقبين » (٢ بط ٢ : ٩) ، « والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام . كما أن سدوم وعمورة والمدن التى حولهما إذ زنت على طريق مثلهما ومضت وراء جسد آخر جعلت عبرة مكابدة عقاب نار أبدية » (يه ٦ و ٧) .

ويلاحظ أن الأرواح لا تنال ثوابها أو عقابها على أثر انفصالها من أجسادها ، بل تأخذ عربوناً فقط من السعادة إذا كانت صالحة ، أو من التعاسة إذا كانت طالحة ، حتى يجىء يوم القيامة فتلبس الأرواح أجسادها التى تنال معها ما تستحقه من ثواب أو عقاب .

فالأرواح الصالحة التى انفصلت بالموت لا تتمتع مباشرة بملكوت السموات ، بل تنعم فى مكان خاص عينه الله للمتوفين من الأتقياء قبل قيامة الأجساد للدينونة . وكذلك الأرواح الشريرة لا تطرح مباشرة فى الجحيم الأبدى ، وإنما تعتقل فى مكان للعذاب حتى يوم الحساب .

وقد أعلن السيد « المسيح » أن ثواب الأبرار وعقاب الأشرار لا يكون إلا بعد نهاية العالم ، بقوله : « ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده . ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء . فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . . . . ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عنى يا ملاعين النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته . . . فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى ، والأبرار إلى حياة أبدية » (مت ٢٥ : ٣١ — ٣٤ ، ٤١ ، ٤٦) .

وفى ضوء ما سبق لا يعتقد المصريون المسيحيون فى حياة فى القبر بأية صورة من صورها [٢٨] .

* * *

ويدعو المصريون المسيحيون إلى الإيمان بديمومة النفس ، وقيامة الأجساد ، والجزاء الأبدى . ويرون أن قضية قيامة الأجساد تتضمن ، أيضاً ، ديمومة النفس ،

لأن الأجساد لا تحيا إلا بها ، كما تتضمن ، أيضاً ، الجزاء الأبدى لأنه الغاية من قيامها .

أى أن القيامة المجيدة هى ، عند المصريين المسيحيين ، من أهم أسس المسيحية الراسخة ، « فإن لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام . وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم » (١ كو ١٥ : ١٣ ، ٢٤) .

وقد وجه العهد القديم النظر إلى القيامة . فقد جاء فيه « تحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنموا يا سكان التراب » (١ ش ٢٦ : ١٩) ، « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى . والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور » (دا ١٢ : ٢ ، ٣) . ولما لم يؤمن اليهود بهذه القيامة ، أولا ، وقالوا إن عظامنا قد صارت أرضاً وفنيت « . . . ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا . فقد انقطعنا » (حز ٣٧ : ١١) ، كانت الإجابة على ذلك « . . قل لهم هكذا : قال السيد الرب : هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى وآتى بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أنى أنا الرب عند فتحى قبوركم وإصعادى إياكم من قبوركم يا شعبى . وأجعل روحى فيكم فتحيون وأجعلكم فى أرضكم فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وأفعل » (حز ٣٧ :١٢ — ١٤) [٢٩] .

إلا أن العهد الجديد قد أوضح حقيقة القيامة بجلاء . فهى « التاج الكريم الذى زينت به هامة عمل ابن الله الفدائى ، والينبوع المبارك الذى تفجر لنا منه مياه النعمة بغزارة ، والمصحف السرى الذى نتلوا فى صحائفه السرية رسائل المجد العتيد للحياة الدائمة » .

وقد أكثر كتبة العهد الجديد من ذكر القيامة المجيدة للأجساد ، إيذاناً بمركزها العظيم بين المبادئ المسيحية وتعظيما لفوائدها . حيث وردت فيه كلمة « قيامة » مع مشتقاتها نحواً من مائة وإحدى وعشرين مرة . منها إحدى وعشرون تختص بالقيامة الوقتية ، والمائة بالقيامة الأخيرة . هذا عدا مترادفاتها كالحياة وغيرها ، ومستلزماتها كالدينونة ونحوها . فقد وردت لفظة « قيامة »٣٧ مرة منها واحدة وقتية ، و « قيام » ثلاث مرات ، و « قام » ١٦ مرة منها خمس مرات وقتية ،

و « قامت » ثلاث مرات وقتية ، و « أقيم » ثمانى مرات ، و « أقوم » مرة واحدة ، و « يقوم » ١٢ مرة منها اثنتان وقتيتان ، و « تقوم » مرتين ، و « يقومون » ست مرات منها واحدة وقتية ، و « قم » مرة واحدة وقتية ، و « قومى » ثلاث مرات وقتية ، و « إقامة » مرة وقتية ، و « أقام » ٢١ مرة منها ثلاث مرات وقتية ، و « يقيم » أربع مرات ، و « يقام » مرة ، و « أقيموا » مرة وقتية ، « والمقام » مرة واحدة .

وكان الرسل الأماجد ، فى خطبهم العامة والخاصة ، يجتهدون فى أن يجلوا موضوع القيامة ، مقررين إياه بوضوح . كما أثبت ذلك « لوقا الإنجيلى » فى سفر الأعمال . ففى خطابات « بطرس » الخمسة ، قرر هذه الحقيقة عشر مرات ، وفى خطابات « بولس » الستة ، ذكرها فى خمسة منها ، عشر مرات أيضاً . كما أن خطاباته التى ألقاها ولم يسجل نصها ، كانت مرتكزة عليها . منها خطبه الثلاث التى ألقاها فى مجمع تسالونيكى ، كانت تعلن بوضوح هذه الحقيقة ، « فدخل بولس إليهم (مجمع اليهود) حسب عادته وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب . موضحاً ومبيناً أنه كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات » (١ع ١٧ : ٢ — ٣) . وكان موضوع بشراه ، فى أثينا ، نفس هذا الحق « يبشرهم بيسوع والقيامة » (١ع ١٧ : ١٨) . ومن فحوى خطابه الخاص لـ « فيلكس » ، نرى أنه لم يغفل عن الإلماع إلى هذه الحقيقة بطريق الكناية « الدينونة العتيدة » (١ع ٢٤ : ٣٥) .

وما ذلك إلا لكون الرسل اعتبروا أن القيامة هى الموضوع الجوهرى ، الذى شعروا بمسئوليتهم نحوه بالشهادة الصريحة فى كل حين بمنتهى الشجاعة والتضحية : « وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع » (١ع ٤ : ٣٣) . لذا أثبتوا فى صلب قانون إيمانهم أن « أومن بقيام الجسد » .

فمن أجل قيامة الرب ، يؤمن المسيحيون أن القيامة تكون (١كو ١٥ : ١٢ — ١٦ ، ٢٠) . وهو أيضاً . الذى أقام « لعازر » فى اليوم الرابع و « ابنة الرئيس » و « ابن الأرملة » . وقام أيضاً جسده فى اليوم الثالث بأمر الآب . وصار لهم عربوناً للقيامة . وهو أصعد « يونان » من بطن الحوت فى اليوم الثالث حياً بلا فساد . وخلص الثلاثة الفتية من أتون النار ببابل . وخلص « دانال » من أفواه الأسود الضاربة . وهو الذى يقيم الناس ، جميعاً ، فى القيامة .

فالقيامة لم يبشر بها للشهداء فقط ، بل للناس كلهم الصالح والطالح ، البار والفاجر ، لينال كل واحد استحقاقه ، «لأنه لابدّ أننا جميعاً نظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شرًّا » (٢ كو ٥ : ١٠) [٣٠] .

* * *

وموضوع القيامة ، عند المسيحيين ، موضوع خطير ، فهو ينشط المؤمنين منهم ، مالئاً إياهم بروح العبادة بإيمان عجيب ، ودافعاً لهم على الإكثار من عمل الخير « راسخين (فى الإيمان بالقيامة) غير متزعزعين مكثرين فى عمل الرب » (١ كو ١٥ : ٥٨) . وهو لهم مناط الآمال السامية والأبدية ، وغاية الجهد العنيف المتواصل « لعلى أبلغ إلى قيامة الأموات » (فى ٣ : ١١) . بل « هو الذى ملأ ويملأ قلوب الأتقياء بهجة فى سجون الحزن المكربة ، ويسطع عليهم بأشعة منعشة وسط جحافل الظلام الحالك ، ويفيض على قلوبهم ترنماً إبان الكدر الشديد » . وهو الذى يحمسهم للجهاد ضد الأرواح الشريرة ، والكفاح إزاء الشهوات ، والعمل على قمع ميول الجسد المتمرد . وهو ، أيضاً ، الذى دفع رجال الله الأتقياء على اقتحام المخاطر ، والمؤمنين الثابتين على حمل أهوال الاضطهاد ، والشهداء على هدر دمائهم ذوداً عن الحق « ولماذا نخاطر (على رجاء القيامة) نحن كل ساعة . إنى بافتخاركم الذى لى فى يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم » (١ كو ١٥ : ٣٠ — ٣١) .

* * *

ويجعل موضوع القيامة المؤمن التقى غير جزع عند الموت ، لأن بريق القيامة ينير له ظلامه الدامس ، فيسير فى واديه بلا اضطراب ، بل بشجاعة لا توصف وابتهاج عجيب . إذ يعرف أنه ليس إلا ممرًّا قصيراً يصل به إلى الأبدية ، حيث ينتظر القيامة المبهجة ، وينتهى به إلى فردوس عربون السعادة الجميل . وبينما نرى عديمى الرجاء بالقيامة ينتابهم وقت إقبال الموت عليهم رعب شديد ، نرى المؤمن المسيحى يرتاح لمقابلته ، حيث يرى فيها فراشاً وثيراً تحيطه فيه عناية مطمئنة . إذ يسند رأسه إلى ذراعى الآب بلذة مجيدة ، وينام مطمئنًّا قائلا : « بسلامة أضطجع بل أيضاً أنام » (مز ٤ : ٨) ، و« جسدى أيضاً يسكن مطمئنًّا » (مز ١٦ : ٩) ،

و « فيرجع التراب إلى الأرض كما كان ، وترجع الروح إلى الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) .

والقيامة ، عند المسيحيين ، أس النعيم ومصدر الخيرات القيمة « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حى بقيامة يسوع المسيح من الأموات ، لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السموات لأجلكم » (١ بط ١ : ٣ – ٤) . فبقيامة المسيح المجيدة انتهج لهم طريق السماء ومتعهم بعربون الغنى العظيم والأبدى ، « لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه فى القديسين . وما هى عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته . الذى عمله فى المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه فى السموات » (١ ف ١ : ١٨ – ٢٠) . ولولا هذه القيامة لتأيد صك الموت والشقاء على الناس . حيث لا يبقى بعد أمل لرجاء الفرج . وحيث يصير القبر هاوية أبدية سحيقة ومخيفة ، لا سبيل إلى الفرار منها « إن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم أنتم بعد فى خطاياكم . إذاً الذين رقدوا فى المسيح أيضاً هلكوا . إن كان لنا فى هذه الحياة فقط رجاء فى المسيح فإننا أشقى جميع الناس » (١ كو ١٥ : ١٧ – ١٩) .

إنه بقيامة « المسيح » المبارك قد ضمن قيامة شعبه المختار ، وفتح لهم سبيلا أميناً إلى السعادة الدائمة . أجل إنهم سيموتون ويخضعون للفساد ، إلا أن قيامتهم للحياة الأبدية مؤكدة ومضمونة إذ يتمتعون بالولائم الثمينة حيث السرور العميق الكامل ، لأن شبح الموت قد تلاشى نهائياً « ابتلع الموت إلى غلبة . أين شوكتك يا موت . أين غلبتك يا هاوية » (١ كو ١٥ : ٥٤ – ٥٥) [٣١] .

* * *

وقد دعيت القيامة ، عند المسيحيين ، قيامة الأجساد خوفاً من أن يظن أحد أن النفس تموت مع الجسد ، لأن النفس الخالدة لا يمكن أن يتسلط عليها فناء .

وقد اجتاز « المسيح » الموت بملء شخصيته . كانت قيامته اختباراً اجتازه الجسد كما اجتازته الروح بانتصار . ولما ظهر لتلاميذه بعد قيامته أراهم آثار الجراح فى يديه وجنبه كى يبرهن لهم أن هذا الجسد الذى أبقى عليه ، هو جسده الأصلى على الرغم من أنه تمجد . « ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت

الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف فى الوسط وقال لهم سلام لكم ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه . ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب » (يو ٢٠ : ١٩ — ٢٠) .

ويلاحظ أن جسم السيد « المسيح » جسم بلا خطيئة ، وتعتقد الكنيسة القبطية أن للسيد « المسيح » ، بعد التجسد ، طبيعة واحدة متحدة .

ويرى المصريون المسيحيون أنه لا بد أن تلبس النفوس أجسادها لكى تكافأ النفوس التقية منها بالوجود فى السماء ، ولكى تجازى النفوس التعيسة منها بالطرح فى جهنم . لأنه عدل أن تكافأ النفس فى الجسد الذى أحسنت فيه ، وتجازى النفس فى الجسد الذى أساءت فيه . فالعيون التى منعت نفسها من التلذذ بالمناظر العالمية ، والألسنة التى أبت أن تتذوق لذة الدنيا ، والآذان التى حرمت ذاتها من التمتع بأصوات هذا الوجود ، هى التى ستفوز بكل سعادة فى العالم الآخر . أما الأعين الشريرة ، والأفواه الكاذبة ، والأعضاء الفاسدة ، فلا بد ، أيضاً ، أن تجازى بكل شقاء فى الحياة الآتية . ولا يكون ذلك للنفس وحدها أو للجسد وحده بل للنفس إذا لبست جسدها . أما قبل القيامة فكلاهما محفوظ لتلك الساعة .

أما الكيفية التى تقوم بها الأجساد فقد سئل عنها الرسول « بولس » بهذا السؤال : كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ؟ فأجاب : « يا غبى الذى تزرعه لا يحيا إن لم يمت . والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى . ولكن الله يعطيها جسما كما أراد ولكل واحد من البذور جسمه . ليس كل جسد جسداً واحداً بل للناس جسد واحد وللبهائم جسد آخر . وللسمك آخر . وللطير آخر . وأجسام سماوية وأجسام أرضية . لكن مجد السماويات شىء ومجد الأرضيات آخر . مجد الشمس شىء ومجد القمر آخر ، ومجد النجوم آخر . لأن نجماً يمتاز عن نجم فى المجد . هكذا أيضاً قيامة الأموات . يزرع فى فساد ويقام فى عدم فساد . يزرع فى هوان ويقام فى مجد . يزرع فى ضعف ويقام فى قوة . يزرع جسما حيوانياً ويقام جسما روحانياً . يوجد جسم حيوانى ويوجد جسم روحانى . هكذا مكتوب أيضاً . صار آدم الإنسان نفساً حية وآدم الأخير روحاً محيياً . لكن ليس الروحانى أولا بل الحيوانى وبعد ذلك الروحانى .

الإنسان الأول من الأرض ترابى . الإنسان الثانى الرب من السماء . كما هو الترابى هكذا الترابيون . وكما هو السماوى هكذا السماويون أيضاً . وكما لبسنا صورة الترابى سنلبس أيضاً صورة السماوى. فأقول هذا أيها الإخوة إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله . ولا يرث الفساد عدم الفساد . هو ذا سر أقوله لكم . لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير . فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير . لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت » (١ كو ١٥ : ٣٥ — ٥٣) .

فالقيامة إذن ، عند المصريين المسيحيين ، هى تغيير وليست استحالة ، والجسد المقام يشابه الجسد الذى يموت من بعض الوجوه وإلا كان العمل خليقة وليس قيامة . وإن إنكار مشابهة الأجساد الطبيعية للأجساد المقامة ، مشابهة خاصة ، إنكار للقيامة نفسها . ولكن يوجد فرق بين المشابهة الخاصة والمشابهة المطلقة الكلية ، لأن هذه يتحتم بموجبها أن كل ذرة دقيقة فى الجسد المائت ينبغى أن توجد فى الجسم المقام . ويرى المصريون المسيحيون توضيحاً لذلك بملاحظة الفرق بين جسد الإنسان وقت الطفولة ، وجسده وقت الشباب ، وجسده وقت الشيخوخة . فمع أنه يختلف عن بعضه فى هذه الأعمار إلا أنه هو الجسد بعينه لم يتغير بغيره . فالجسد المقام إذن يكون جسداً ولكن ليس فى صورته الطبيعية إذ أنه يمنح عدم الفساد والخلود والروحانية ، ليكون مناسباً للعالم الأبدى ، فلا يقوم الأعمى أعمى ، ولا الأعرج أعرج ، ولا الضعيف ضعيفاً ، بل يقوم الكل أصحاء كاملين .

وسيكون الفرق عظيما بين أجساد الأبرار وأجساد الأشرار التى تقوم . « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى . والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور » (د ١ ١٢ : ٢ — ٣) ، فالأبرار « لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد ولا تقع عليهم الشمس ولا شىء من الحر » (رؤ ٧ : ١٦) . ولن تسود عليهم الشهوة لأنهم يكونون كملائكة الله « لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء » ، (مت ٢٢ : ٣٠) ، ويقول « ترتليانوس » فى شرحه على قول « المسيح » « بل يكونون كملائكة الله فى السماء » ،

ما نصه : « إن المسيح لم يقل يكونون ملائكة لئلا تنكر البشرية (الجسد) ، بل قال كملائكة لتحفظ البشرية ، ولم يلاش الجوهر الذى منحه مثاله » . ولا يكون جسدهم بعد لحماً ولا دماً « فأقول هذا أيها الإخوة إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله » (١ كو ١٥ : ٥٠) . والفخر الأعظم والوعد الأكمل أنه سيكون كجسد « المسيح » ، « ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢) ، « الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده » (فى ٣ : ٢١) .

أما الخطاة فيقومون بأجساد مملوءة شناعة ومتشحة بالسواد فتنبعث منها الروائح الكريهة . فيالها من تعاسة شديدة ويا له من حزن مفرط يحيقان بأولئك الهالكين المرذولين عند اتحاد أنفسهم بأجسادهم ، فتذكر النفس عندما ترى الجسد كل ما ارتكبت فيه من الشرور ، وكل ما استخدمته فيه من المعاصى فتقول له : « أيها الجسد الملعون إنى لأجل رغبتى فى أن أنعمك هلكت » . فيجيبها قائلا : أيتها النفس اللعينة الشقية . أنت التى كنت حاصلة على العقل والفطنة فلماذا تنازلت معى وساعدتينى على ارتكاب كل تلك الشرور التى سببت لى الهلاك الأبدى .

أما كيف تكون القيامة ؟ فيقول الرسول « بولس » : « فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير . فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير » (١ كو ١٥ : ٥٢) . وقال السيد « المسيح » « فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع رياح من أقصاء السموات إلى أقصائها » (مت ٢٤ : ٣١) . فمتى صدر أمر الله إلى ملائكته بإحضار جميع بنى البشر ، وليس من المحتم أن يموت كل الناس قبل القيامة ، بل يوجد من يكونون أحياء وقتئذ فيقتضى تغييرهم فقط — حينئذ تنحدر قوته إلى أعماق القبور فتنعش العظم الرميم . وكم من أجساد مندثرة ضمن طيات الأرض . ولكن الله هو الذى يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة ، « كما هو مكتوب إنى قد جعلتك أباً لأمم كثيرة . أمام الله الذى آمن به الذى يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة » (رو ٤ : ١٧) . ويأمر الله جميع الناس قاطبة أن يقوموا حينئذ يسلم البحر الأموات الذين فيه ويسلم الموت والهاوية الذين فيهما ، « وسلم البحر الأموات الذين فيه وسلم

الموت والهاوية الأموات الذين فيهما ودينوا كل واحد بحسب أعماله » (رؤ ٢٠ : ١٣) . وهكذا تأخذ البرية تولد ميلاداً جديداً . وهذا العمل لا يحتاج إلى سنين متعددة لأن قدرة الله لا تقف عند زمان ولا مكان ، بل كما قال الرسول « بولس » : « فى لحظة » . أى أنه بصدور الأمر الإلهى بانتهاء العالم ينتهى فى الحال . « من أجل ذلك فى يوم واحد ستأتى ضرباتها موت وحزن وجوع وتحترق بالنار لأن الرب الإله الذى يدينها قوى » (رؤ ١٨ ؛ : ٨) ، « وأنت يا رب فى البدء أسست الأرض والسموات هى عمل يديك . وهى تبيد ولكن أنت تبقى وكلها كثوب تبلى . وكرداء تطويها فتتغير ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى » (عب ١ : ١٠ — ١٢) ، « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠) . هذه هى النهاية التى تفنى كل غنى وكل مجد عالمى وتنعمات زمنية ، « قد جاء الوقت . بلغ اليوم . فلا يفرحن الشارى ولا يحزنن البائع لأن الغضب على كل جمهورهم » (حز ٧ : ١٢) . « ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم . ونجوم السماء سقطت على الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف وكل جبل وجزيرة تزحزحا من موضعهما . وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى المغاير وفى صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف . لأنه جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف » (رؤ ٦ : ١٢ — ١٧) .

ولا مفر للخاطئ من ذلك الهول . ولن تجديه كل محاولاته للتخلص منه . سيسمع ، حينئذ ، بكاء وعويل لم يعرفا منذ إنشاء العالم . ستدوس المرأة ، وهى لا تشعر ، وليدها الرضيع . ويهمل الأب ابنه وهو لا يدرى . أما الأبرار فان يدنو منهم شر ، ولا يقترب منهم خطر . بل يخطفون ، جميعاً ، لملاقاة الرب فى الهواء [٣٢] .

* * *

والدينونة ، عند المصريين المسيحيين ، حادثة حقيقية تحدث فى يوم مجهول

لدى الجميع ، قد رسمه الله منذ الأزل ، وحدده ليقضى فيه منتقماً من الأشرار الظالمين ومنتصراً للأبرار المظلومين .

أما الديان فهو « يسوع المسيح » الذى قال « لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة فى ذاته . وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان » (يو ٥ : ٢٦ — ٢٧) ، وقال أيضاً : « أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً . كما أسمع أدين ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى » (يو ٥ : ٣٠) ، وقال أيضاً : « لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن » (يو ٥ : ٢٢) ، ويقول « بطرس » عنه : « بأن هذا هو المعين من الله دياناً للأحياء والأموات » (١ ع ١٠ : ٤٢) ، ويقول « بولس » أيضاً » : « لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات » (١ ع ١٧ : ٣١) .

وإذا كان « المسيح » المختص قد أتى ، أولا ، وديعاً متواضعاً ، فاتخذ العالم من اتضاعه سبباً لاحتقاره وإذلاله . وإذا كان قد أتى ليسكب على الناس فيض رحمته ، فاتخذ العالم من رحمته سبباً ليسىء إلى هذا الإله الجزيل الصبر والجود — فمن الواجب إذن فى مجيئه الثانى (يوم الدينونة) أن يأتى ليصلح هذين الجرمين اللذين أجرم بهما البشر . فيأتى ، أولا ، بعظمته ، ويأتى ، ثانياً ، بعدله . ويصير الخروف الوديع ، الذى بصبر عجيب فى هذه الحياة احتمل من الخطاة إهانات وافتراءات عديدة ، أسداً مفترساً . كان مجىء « المسيح » الأول بصلح وسلام إلى العالم ، « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » (لو ٢ : ١٤) .

وأما مجيئه الثانى فإنه سيكرن بروح الشدة والغضب لأنه يأتى للانتقام والمجازاة وتعذيب الخطاة ، « فهوذا يأتى اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتى قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلا ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١) ، « وفى تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩ : ٦) .

والذين يقومون ، فى يوم الدينونة ، هم كل أفراد الجنس البشرى بلا استثناء . وقد قال السيد « المسيح » ، « فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور

صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة » (يو ٥ : ٢٨ — ٢٩) . ، « ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله » (رؤ ٢٠ : ١٢) ؛ فسيحضر إذن جميع البشر ليدانوا سواء رضوا أم لم يرضوا . وليس أحد من أعظم ملوك العالم يسمو بهذا المقدار حتى يترك . وليس أحد من أحقر فقراء العالم يكون دنيئاً بهذا المقدار حتى يهمل .

وستكون دينونة بنى آدم وحسابهم بموجب أسفار ، « ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة ودين الأموات مما هو مكتوب فى أسفار بحسب أعمالهم » (رؤ ٢٠ : ١٢) ، « كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام ، لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقى وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة . نهر نار جرى وخرج من قدامه . ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدامه . فجلس الدين وفتحت الأسفار » (دا ٧ : ٩ — ١٠) .

وأول أسفار الدينونة هو « الكتاب المقدس » . قال السيد « المسيح » : « من رذلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه . الكلام الذى تكلمت به هو يدينه فى اليوم الأخير » (يو ١٢ : ٤٨) . فإذا اتخذ الإنسان كتاب الله مصباحاً له وسار مهتدياً به يحصل على النجاة ، أما إذا أهمل ذلك الخلاص الذى تكلم به الرب فلا يمكن أن ينجو . سيقف « الكتاب المقدس » ، فى ذلك اليوم ، ويشتكى على كل من تعداه وأهمله ولم يتمم ما جاء فيه .

ويوجد أيضاً سفر آخر يدين به « المسيح » البشر وهو « سفر الضمير » ، ولهذا يقول الرسول « بولس » : « لذلك أنا أيضاً أدرب نفسى ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس » (١ ع ٢٤ : ١٦) ، وقال أيضاً : « لأن فخرنا هو هذا شهادة ضميرنا » (٢ كو ١ : ١٢) . وسيقف ، فى يوم الدينونة ، أمام الديان العادل ، أولئك الذين عاشوا بدون أن يعبأوا بربهم وبآخرتهم ، أو يهتموا بأرواحهم الخالدة ، وبما يلزم لها . وسيقف بجانبهم ذلك الضمير الذى تعب كثيراً عندما كان يؤدى وظيفته بين أولئك الأشرار ، وسيرفع الديان صوته قائلا : « قم أيها الضمير . أيها النائب الجليل واشتك على هؤلاء الواقفين أمام القضاء » ، فيقوم

الضمير معدداً كل شرور الإنسان ، وكيف كان يوبخه عليها ، كما قال الرسول : « شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة » (رو ٢ : ١٥) .

والسفر الثالث هو « سفر التوكيل » ، فعندما يفتح هذا السفر ، يقول السيد « المسيح » لكل واحد : « أعط حساب وكالتك » (لو ١٦ : ٢) . لقد كنت موكلا على أمور كثيرة متنوعة . كنت موكلا على جسم فماذا عملت له ؟ كيف تصرفت بعينيك ، ماذا عملت بعقلك ؟ لقد وكلت على روح ، فهل اهتممت بها جيداً ؟ ووكلت على أموال كثيرة كانت أو قليلة فكيف تصرفت بها ؟ وقد أعطيت وقتاً ، فكيف قضيته ؟ هل أحببت الله حبًّا خالصاً حقًّا ؟ هل كنت تقود الناس إلى الخير أو إلى الشر؟ أين وضعت نفسك ؟ أين جعلت صورتك ؟ أين ألقيت وزنك؟، أيها المحبو الفضة البخلاء . . . أيها الخطفة والمرابون . . . أيها الخائنون . . . أين وضعتم قلوبكم ؟ أفي رمس الاحتشاد والاستكثار ؟ أفي قبر الجور والظلم ؟ أفي لحد الخطف والنهب ؟ « أعطوا حساب وكالتكم » أيها الحاقدون . أين وضعتم ضمائركم وأفئدتكم؟ « أعطوا حساب وكالتكن » أيتها النساء الجاهلات . أين وضعتن قلوبكن ؟ . « أعطوا حساب وكالتكم » أيها الرعاة الذين سلمت إليكم النفوس لترعوها ، أين وضعتم عقولكم وقلوبكم ؟ « أعطوا حساب وكالتكم » هل فيكم ، جميعاً ، من يحتج بأنه أخطأ جهلا ؟ أيها الخطاة لو قلتم ذلك لقامت عليكم المنابر وجميع أجراس الكنائس والأسفار الإلهية وخدام الكلمة وكذبوكم . لأنهم طالما نصحوكم والتمسوا منكم أن ترجعوا عن غيكم ، ولكنكم رفضتم المعرفة ولذلك أنا أرفضكم ، « قد هلك شعبي من عدم المعرفة . لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا حتى لا تكهن لي » (هو ٤ : ٦) . ومهما احتججت بأنك قد أخطأت مكرهاً ، واعتذرت بمولاك أو صاحبك ، أو من أجل عيالك أو زوجك فأنت بلا عذر أيها الإنسان ، « لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين . لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك لأنك أنت الذى تدين تفعل تلك الأمور بعينها » (رو ٢ : ١) . لأني لم أترك في كتابي كل إرشاد إلا وقدمته لكم ، فلو فحصتموه لعرفتم قوانين هذه الدينونة . لقد سبق أبوكم آدم وستر نفسه بأوراق التين ولكن لم تخف عني خطيئته ، فاعتذاراتكم لا تستر عيوبكم . أنا فاحص القلوب والكلى . عرفت أن الذى دفعكم

إلى الشر ليس التخلص من الفقر أو ضغط الآخرين عليكم ، بل ميلكم الفاسد ورغبتكم الشريرة .

ويلاحظ أننا نجد ، فى ضوء الكتاب المقدس ، أن كل الذين كشفت لهم عيوبهم وسئلوا عنها لم يستطيعوا أن يقدموا جواباً . لقد قال « ناثان » « لداود » بعد أن أوضح له خطيئته « أنت هو الرجل » فلم يجب بكلمة (٢ صم ١٢ : ٧) ، ولما بكت « إيليا » « آخاب » الملك لاغتصابه كرم نابوت لم يلق جواباً (١ مل ٢١ : ١٩) ، ولما وبخ الذى حضر إلى العرس وليس عليه ثيابه بالقول : « ياصاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس » يقول الكتاب « فسكت » (مت ٢٢ : ١٢) . هكذا يكون فى يوم الدينونة ، ليس للخاطئ حينئذ إلا أن يسكت .

وبعد نهاية المحاسبة يتقدم المشتكون والشهود فيقف الشاهد الأول وهو « الشيطان » ويشهد على الخطاة ثم يكشف لكل واحد منهم جميع ما صنع من الآثام والشرور معيناً له الوقت الذى ارتكبها فيه بالتدقيق وبعد ذلك يصيح قائلا : إن هذا الإنسان صار ملكاً لى لأنه ارتضى فى الأرض أن أملك عليه وعمل بوصاياى وأطاع مشورتى فينبغى أن يكون حيث أكون أنا فى المكان المعد لى » ، « إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته » (مت ٢٥ : ٤١) .

ثم يتقدم الشاهد الثانى وهو « الخطايا » ، ويقف أمام ضمير كل إنسان فيرى ما ارتكبه مخطوطاً بحروف من نار ويرى كل أنواع قساوته وتشامخه وغروره وكل أنواع رجاساته ودعارته ، وكل نواياه وخفاياه .

ثم يتقدم الشاهد الثالث وهو « كفارة المسيح والفداء الذى افتدى به البشر » . قال القديس يوحنا ذهبي الفم « إن جراحات المسيح تشهد على ذنبك أيها الخاطئ ، ومسامير يديه ورجليه تشتكى عليك ، وصليبه يهتف ضدك » .

وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الأشرار من الأبرار فيقف الأبرار عن يمين الديان ، أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعاً على اليسار نظير الجداء المعدة للذبح كما يقول « أيوب » : « إنه ليوم البوار يمسك الشرير ليوم السخط يقادون » (أى ٢١ : ٣٠) [٣٣] .

* * *

ويكون جزاء الأبرار ، فى يوم الدينونة ، هو الحياة الأبدية ، وجزاء الأشرار هو العذاب الأبدى . إذ قال السيد « المسيح » : « فيمضى هؤلاء (أى الأشرار) إلى عذاب أبدى ، والأبرار إلى حياة أبدية » (مت ٢٥ : ٤٦) .

ويرى المصريون المسيحيون أن الحياة الأبدية والعذاب الأبدى حالتان أولاهما فى أقرب القرب إلى الله ، والثانية فى أبعد البعد عنه . والأولى ثواب البر ، والثانية عقاب الخطيئة .

ونعيم الأبرار هو اتصالهم بالله ورؤيتهم جلاله ، وتلك هى سعادة الإنسان النهائية التى إليها تتجه كل أشواق قلبه . ومن هذه المشاهدة الإلهية والمحبة المتسببة عنها يتولد فى قلبه سلام وسكون وسرور وتهلل لايدركها أو يفهمها إلا أولئك الذين عرفوها بالتجربة ، « تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) .

ومن خصائص نعيم الأبرار الذين يحظون به ، فى الحياة الأبدية ، أنه ثابت غير متناه . فهو لا يفنى ولا يزول . فضلا عن أنه يفوق كل إدراك البشر فى سعادته وتبرئه من كل ما ينغص الحياة . « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) ، « فتبتهجون (على أثر القيامة) بفرح لا ينطق به ومجيد » (١ بط ١ : ٨) إلا أن الجميع لا يكونون فى درجة واحدة من السعادة ، بل فى درجات متفاوتة حسب الفضل والاستحقاق « فى بيت أبى منازل كثيرة » (يو ١٤ : ٢) .

أما جحيم الأشرار فهو نار جهنم الحقيقية المستعرة على الدوام ، إذ قال السيد « المسيح » : « اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته » (مت ٢٥ : ٤١) . ويتضمن هذا الحكم عقابين : الأول : « اذهبوا عنى » عقاب الخسران ، والثانى : « إلى النار الأبدية » عقاب الحواس . أى أن يذهبوا لا ليعودوا إلى الأرض مرة ثانية ، بل إلى النار الأبدية ليعذبوا إلى الأبد ، « فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسح وعوض الجمال كى » (١ ش ٣ : ٢٤) ، « أحببتم اللعنة فأتتكم ولم تسروا بالبركة فتباعدت عنكم ، فلبستم اللعنة مثل ثوب ، فدخلت كمياه فى أحشائكم وكزيت فى

عظامكم . فلتكن لكم كثوب تتعطفون به وكمنطقة تتمنطقون بها دائماً . هذه أجرة مبغضى من عند الرب وأجرة المتكلمين شراً على نفسى » (مز ١٠٩ : ١٧ — ٢٠).

ويتقدم الملائكة لتنفيذ أمر سيدهم ، ويحملون الخطاة إلى الهاوية ، « فرفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب » (لو ١٦ : ٢٣) ، حيث النار الأبدية ويسوقونهم أمام أعين الصديقين فتنشق الأرض وتفتح جهنم جوفها فتبتلعهم ، ويغوصون فى لجحها إلى الأبد ، ويتم ذلك قول « داود النبى » : « مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب بسخطه يبتلعهم وتأكلهم النار » (مز ٢١ : ٩) .

ونلاحظ أن المصريين المسيحيين يرون أن طبيعة نار جهنم تختلف عن طبيعة نارنا العنصرية فى كونها ليست مفتقرة إلى مادة تغذيها . ولذلك قيل عنها إنها نار روحية لأنها لا تفتقر لقيامها إلى مادة ، بل إنها تحرق الأنفس والأجسام المعذبة بها دون أن تبيدها أو تنفيها ، كما أنها تشتعل ولا تنطفئ ، وهى تعذب كل واحد من الخطاة حسب خطيئته وبمقدارها[٣٤] .

٤ ـ الحياة بعد الموت عند المصريين المسلمين

يجمع المصريون المسلمون على أن الله قد كتب الموت على كل كائن حى . ولا ينجو من كأس الردى مخلوق . قال تعالى : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (١٨٥ م آل عمران ٣) . وقال تعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (٧٨ م النساء ٤) .

وهم يجمعون ، أيضاً ، على أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ،ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين مستبشرين .

ويرى المصريون المسلمون أن للإنسان أطواراً فى حياته . فحياته فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لها خصائصها ومميزاتها ، وحياته فى عالم الحس كذلك لها خصائصها ومميزاتها ، وحياته فى البرزخ (القبر) هى الأخرى لها خصائص ومميزات . وحياته يوم القيامة لها خصائص ومميزات تميزها عن كل ما عداها [٣٥] .

* * *

ولكن يلاحظ أن « أبا محمد بن حزم » فى كتابه « الملل والنحل » قال : وأما من ظن أن الميت يحيا ، فى قبره ، قبل يوم القيامة فخطأ . لأن آيات القرآن الكريم تمنع من ذلك . قال تعالى : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » (١١ ك غافر ٤٠). وقال تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » (٢٨م البقرة ٢) . وقال أيضاً : ولو كان الميت يحيا فى قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثاً وأحيانا ثلاثاً ، وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله آية لنبى من الأنبياء مثل « الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » (٢٤٣ م البقرة ٢) . أو « كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » (٢٥٩ م البقرة ٢) . وكذلك قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس

حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » (٤٢ ك الزمر ٣٩) . فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة . وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الأرواح ، ليلة أسرى به ، عند سماء الدنيا ، من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة ، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة . وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور . ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا . وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك . فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك . وأما الجسد فلا حس له . وقد قال الله تعالى : « وما أنت بمسمع من فى القبور » (٢٢ ك فاطر ٣٥) . فنفى السمع عمن فى القبور وهى الأجساد بلا شك ، ولا يشك مسلم أن الذى نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذى أثبت له رسول الله صلى الله عليه وسلم السمع . وقال كذلك : ولم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة . ولو صح ذلك عنه لقلنا به . وقال مرة أخرى : وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح فى القبور إلى الأجساد « المنهال بن عمرو » ، وحده ، وليس بالقوى ، تركه « شعبة » وغيره . وقال فيه « المغيرة بن مقسم الضبى » ، وهو أحد الأئمة ، ما جازت لـ « المنهال بن عمرو » قط شهادة فى الإسلام على ما قد نقل ، وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك . وأجمل « ابن حزم » أقواله السابقة ، قائلا : « وهذا الذى قلنا هو الذى صح أيضاً عن الصحابة » . ثم ذكر من طريق « ابن عيينة » عن « منصور بن صفية » عن أمه « صفية بنت شيبة » قالت : « دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر ، فقيل له : هذه أسماء بنت أبى بكر الصديق فمال ابن عمر إليها فعزاها وقال : إن هذه الجثث ليست بشىء وإن الأرواح عند الله . فقالت أمه : « وما يمنعنى وقد أهدى رأس يحيى ابن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل » .

أى أن « ابن حزم » يرى أن الروح إذا خرجت من الجسد بالموت لا تعود إلى هذا الجسد فى القبر . ومعنى هذا عدم وجود أية حياة فى القبور بل هى جثث لا تحس بشىء ولا تشعر بشىء .

ويقابل هذا الرأى رأى جمهور العلماء بما يشبه الإجماع ، وقد أيده « ابن القيم » ، وتولى الدفاع عنه — على أن الروح بعد مفارقتها للبدن بالموت تعود إلى البدن فى قبره ، وأن فى القبر حياة ، ولكنها ليست الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس ، بل حياة أخرى غير هذه الحياة تعاد الروح إلى البدن إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا ليسأل ويمتحن فى قبره . وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « فتعاد روحه فى جسده » . وقد قال « الحافظ أبو عبد الله بن منده» فى كتاب « الروح والنفس » : « أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف حدثنا محمد ابن إسحاق الصفار أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلسنا وجلس وكأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رؤوسنا الطير فأرم قليلا ، (والإرمام السكوت) ، فلما رفع رأسه قال : إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت ، نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة فجلسوا منه مد البصر وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال : أخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى رحمة الله ورضوانه . فتنسل (فتسيل) نفسه كما تقطر القطرة من السقاء ، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين . ثم يصعد به إلى السماء ، فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء ، فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه فى عليين . ويقول الرب عز وجل : ردوا عبدى إلى مضجعه فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له : يا هذا من ربك ؟ فيقول : ربى الله، فيقولان: صدقت ، ثم يقال له: ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان : صدقت ، ثم يقال له : من نبيك ؟ فيقول: محمد رسول الله ، فيقولان : صدقت . ثم يفسح له فى قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب ، فيقول : جزاك الله خيراً فوالله ما علمت إن كنت

لسريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله . فيقول : وأنت جزاك الله خيراً فمن أنت ؟ فقال : أنا عملك الصالح . ثم يفتح له باب الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة . وإن الكافر إذا كان فى دبر من الدنيا وقبل من الآخرة ، وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار . فقال : فيجلسون منذ مد البصر ، وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ، ثم قال : اخرجى أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى غضب الله وسخطه ، فتفرق روحه فى جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول ، فإذا خرجت نفسه لعنه كل شىء بين السماء والأرض إلا الثقلين ، ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه . فيقول الرب عز وجل : ردوا عبدى إلى مضجعه فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما ، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيجلسانه ثم يقولان: يا هذا من ربك؟ فيقول لا أدرى . فينادى من جانب القبر : لا دريت ، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الثياب منتن الريح فيقول : جزاك الله شراً فوالله ما علمت إن كنت لبطيئاً عن طاعة الله سريعاً فى معصية الله . فيقول : ومن أنت؟ فيقول أنا عملك الخبيث . ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » . رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبى النضر .

ويدل الحديث التالى على أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان ، ويرى « ابن القيم » أن هذا عود غير التعلق الذى كان لها فى الدنيا بالبدن . وهو نوع آخر ، وغير تعلقها به حال النوم ، وغير تعلقها به وهى فى مقرها ، بل هو عود خاص للمساءلة .

قال « أبو عبد الله بن منده » : « حدثنا محمد بن الحسين بن الحسن حدثنا محمد بن يزيد النيسابورى حدثنا حماد بن قيراط حدثنا محمد بن الفضل عن يزيد ابن عبد الرحمن الصائغ البلخى عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس أنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قاعد تلا هذه الآية : « ولو ترى

إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » (٩٣ م الأنعام ٦) . قال: والذى نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار ، ثم قال : فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس ، فينظر إليهم ما ترى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون إليكم (أنه ينظر إليكم) مع كل منهم أكفان وحنوط فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها . فلا يزالون يبشرونه ويحفون به فهم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها ، ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل ويموت الأول فالأول ويهون عليه ، وكنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذقنه . قال : فلهى أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم ، فيبتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضها ، فيتولى قبضها ملك الموت . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (١١ ك السجدة ٣٢) ، فيتلقاها بأكفان بيض ، ثم يحتضنها إليه ، فهو أشد لزوماً لها من المرأة إذا ولدتها ، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك ، فيستنشقون ريحها ، ويتباشرون بها ، ويقولون مرحباً بالروح الطيبة والروح الطيب اللهم صلى عليه روحاً وعلى جسد خرجت منه . قال : فيصعدون بها ، ولله عز وجل خلق فى الهواء لا يعلم عدتهم إلا هو ، فيفوح منها ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون وتفتح لهم أبواب السماء ، فيصلى عليها كل ملك فى كل سماء تمر بهم حتى ينتهى بها بين يدى الملك الجبار ، فيقول الجبار جل جلاله : مرحباً بالنفس الطيبة ، وبجسد خرجت منه ، وإذا قال الرب عز وجل للشىء مرحباً ، رحب له كل شىء ، ويذهب عنه كل ضيق ، ثم يقول لهذه النفس الطيبة : أدخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ، ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإنى قضيت أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فوالذى نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد . وتقول : أين تذهبون بى إلى ذلك الجسد الذى كنت فيه ؟ قال : فيقولون

إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه ، فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه ، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه » .

ومهما يكن فإن الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال . وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور ، وقابلهم آخرون فقالوا السؤال للروح بلا بدن ، وهذا قاله « ابن حزم » و « ابن مرة » ، وكلاهما غلط ، والأحاديث الصحيحة ترده ، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص (٣٦) .

* * *

والمثبتون للسؤال والنعيم والعذاب فى القبر ، وهم أهل السنة والجماعة ، يرون أن أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير كثيرة متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيحين عن « ابن عباس » : « أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : إنهما يعذبان ، وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة . ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين فقال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

وفى صحيح مسلم عن « زيد بن ثابت » قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ حادت فكادت تلقيه ، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة . فقال من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ فقال رجل : أنا . فقال : متى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا فى الإشراك . فقال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار . قال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال» .

وفى صحيح مسلم ، وجميع السنن عن « أبى هريرة » « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » .

وفى صحيح مسلم ، أيضاً ، وغيره ، عن « ابن عباس » « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء ، كما يعلمهم السورة من القرآن : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » .

وفى الصحيحين عن « أبى أيوب » قال : « خرج النبى صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال : يهود تعذب فى قبورها » .

وفى الصحيحين ، أيضاً ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، قالت : فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها . قالت : فخرجت ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . قال : صدقت ، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها . قالت : فما رأيته بعد فى صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر » .

وروى « أبو هريرة » كما فى المسند وصحيح أبى حاتم « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت إذا وضع فى قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه . فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه . فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان : ما قبلى مدخل ، فيقال له : اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت فى الغروب ، فيقال له : هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : دعونى حتى أصلى ، فيقولون إنك ستصلى ؛ أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه؟ فيقول : محمد ، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه

وتجعل نسمته فى النسيم الطيب ، وهى طير معلق فى شجر الجنة . قال : فذلك قول الله تعالى: « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » (٢٧ك إبراهيم ١٤) . وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال : ثم يضيق عليه قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى « فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (١٢٤ ك طه ٢٠) .

وفى صحيح « أبى حاتم » عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير . فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فهو قائل ما كان يقول ؛ فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقولان له : إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ذراعاً ، وينوّر له فيه . ويقال له : نم ، فيقول أرجع إلى أهلى ومالى فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس التى لا يوقظها إلا أحب أهلها إليها ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال لاأدرى ، كنت أسمع الناس يقولون شيئاً ، فكنت أقوله. فيقولان له : كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

وساق القائلون بعودة الروح إلى الجسد فى القبر وسؤال الملكين وعذاب القبر ونعيمه أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلها تدل على مدعاهم وتؤيد قولهم وليس لردها سبيل .

قال المروزى : قال أبو عبد الله « يعنى الإمام أحمد » : « عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل » . وقال حنبل : « قلت لأبى عبد الله فى عذاب القبر . فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها ، وكل ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم بإسناد جيد أقررنا به ، فإذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفعناه ورددناه ، رددنا على الله أمره . قال الله تعالى : "وما آتاكم الرسول فخذوه" (٧ م الحشر ٥٩) . قلت له : وعذاب القبر حق ؟ قال : حق ، يعذبون فى القبور » . قال : « وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر ،

وبمنكر ونكير ، وأن العبد يسأل فى قبره ف " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة " (٢٧ ك إبراهيم ١٤) فى القبر » .

وقال أحمد بن القاسم: « قلت: يا أبا عبد الله ، تقر بمنكرونكير ، وما يروى فى عذاب القبر ؟ فقال : سبحان الله . . . نعم نقر بذلك ونقوله : قلت هذه اللفظة تقول : منكر ونكير . أو تقول : ملكين ؟ قال منكر ونكير . قلت : يقولون : ليس فى حديث منكر ونكير ، قال : هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير » .

ونرى فى ضوء ما تقدم أن أهل السنة والجماعة قد اتفقوا على أن كل إنسان يسأل بعد موته ، قبر أم لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً أو نسف فى الهواء ، أو غرق فى البحر ، لسئل عن أعماله . وجوزى بالخير خيراً ، وبالشر شرًّا . وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً . قال « ابن القيم » « فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها : أن الميت إذا مات ، يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن ، أحياناً ، ويحصل له معها النعيم أوالعذاب . ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى ، أعيدت الأرواح إلى الإجساد ، وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى » (٣٧) .

* * *

وقد عقد « ابن القيم » فصلا ذكر فيه أقوال العلماء فى مستقر الأرواح ، ثم ذكر القول الراجح فقال : « قيل : الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت .

فمنها : أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى ، هى أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم متفاوتون فى منازلهم كما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء .

ومنها : أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت (هذا نص الحديث) ، وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما فى المسند عن « محمد بن عبد الله ابن جحش » : « أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ،

ما لى إن قتلت فى سبيل الله ؟ قال : الجنة ، فلما ولى ، قال : إلا الدين . سارنى به جبريل آنفاً » . ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة . كما فى الحديث الآخر : « رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة » . ومنهم من يكون محبوساً فى قبره كحديث صاحب الشملة التى غلها (أى سرقها من الغنيمة قبل القسمة) ثم استشهد ، فقال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ، إن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً فى قبره » . ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما فى حديث « ابن عباس » : « الشهداء على بارق نهر الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً » رواه «أحمد». وهذا بخلاف « جعفر بن أبى طالب» حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء . ومنهم من يكون محبوساً فى الأرض ، لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما لا تجامعها فى الدنيا . والنفس التى لم تكتسب فى الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب إليه هى أرضية سفلية . لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك ، كما أن النفس العلوية التى كانت فى الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره ، والتقرب إليه ، والأنس به ، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها . فالمرء مع من أحب فى البرزخ ويوم القيامة ، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض فى البرزخ ويوم الميعاد ويجعل روحه (يعنى المؤمن) مع النسم الطيب (يعنى الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه) ، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

ومنها : أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى ، وأرواح فى نهر الدم ، تسبح فيه ، وتلقم بالحجارة .

فليس للأرواح ، سعيدها وشقيها ، مستقر واحد ، بل روح فى أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض » .

ويستطرد « ابن القيم » قائلا : « وأنت إذا تأملت السنن والآثار فى هذا الباب ، وكان لك بها فضل اعتناء ، عرفت حجة ذلك ، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة فى هذا الباب تعارضاً ، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وأن لها شأناً غير شأن البدن ، وأنها مع كونه فى الجنة فهى

فى السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه . وهى أسرع شىء حركة وانتقالا وصعوداً وهبوطاً ، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير . فهناك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة ، وهناك اللذة والراحة والنعيم والانطلاق ، وما أشبه حالها فى هذا البدن بحال ولد فى بطن أمه ، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار . فلهذه الأنفس أربع دور ، كل دار أعظم من التى قبلها .

الدار الأولى : فى بطن الأم ، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

الدار الثانية : هى الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

الدار الثالثة : دار البرزخ ، وهى أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

الدار الرابعة : دار القرار ، وهى الجنة أو النار ، فلا دار بعدها .

والله ينقلها فى هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها ، وهى التى خلقت لها ، وهيئت للعمل الموصل لها إليها . ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى . فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها . الذى فاوت بينها فى درجات سعادتها وشقاوتها ، كما فاوت بينها فى مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغى ، شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله القوة كلها ، والقدرة كلها ، والعز كله ، والحكمة كلها ، والكمال المطلق من جميع الوجوه ، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله ، وأن الذين جاءوا به هو الحق الذى تشهد به العقول وتقر به الفطر ، وما خالفه هو الباطل . . . وبالله التوفيق »[٣٨] .

* * *

إن المصريين المسلمين يرون أن عقيدة التوحيد والإيمان ضرورة لا يستغنى عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته . ولقد كانت الدعوة إلى هذه العقيدة أول شىء قام به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لتكون حجر الزاوية فى بناء الأمة المسلمة .

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلق لفظ الإيمان«على جميع فروع الدين فقال : « الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان» رواه » البخارى » و« مسلم » . ورواية « مسلم » : « الإيمان بضع وسبعون شعبة : أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذي عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » .

وهذه الفروع والشعب ، منها ما يتعلق بالجنان ومنها ما يتعلق باللسان ، ومنها ما يتعلق بالأبدان . ولعل ما يتعلق بالجنان منها هو ما يهمنا فى هذا المجال . وهى المعتقدات والنيات وتنتظم خصالا معينة ، منها :

الإيمان بالله ، وتوحيده ، وأنه ليس كمثله شيء ، واعتقاد حدوث ما دونه .

والإيمان بملائكته وكتبه ورسله .

والإيمان بالقدر خيره وشره .

والإيمان باليوم الآخر . ويدخل فيه سؤال القبر والبعث ، والنشور والحساب ، والميزان والصراط ، والجنة والنار .

ومن لا يؤمن باليوم الآخر فقد كفر ، والكفر مصدر الشرور والمفاسد ، ومنبع الرذائل والنقائص ، بل هو المدمر لشخصية الإنسان ، والمحطم لكيانه ، والقاضى على كل خصائصه ومميزاته كخليفة عن الله فى الأرض .

والقرآن الكريم ينعى على الكافرين ويندد بهم ، ويرسم صورة كالحة منفرة تدعو إلى التحقير والاشمئزاز .

فهى حياة ليس فيها تفكير ولا تأمل ولا عمق ، وفيها نفور :

« وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » (٢٤ م الجاثية ٤٥) .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » (٢٥ م الجاثية ٤٥) .

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » (٤٥ ك الزمر ٣٩) .

ومهما يكن فالكفر هو الشجرة الخبيثة التى تثمر المر والشر ، وإن على الهداة المخلصين للحياة ، والمحبين لها ، أن يخلصوا الإنسانية من مآثم الكفر وضلال الجحود والإلحاد .

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (٢٦ ـ ٢٧ ك إبراهيم ١٤) [٣٩] .

ويلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على ذلك الحدث الأعظم الذى يؤذن بانتهاء الحياة الدنيا وبداية الحياة الأخرى مفاهيم عدة منها « يوم الآزفة » ، « أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » (٥٧ ـ ٥٨ ك النجم ٥٣) ، و « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » (١٨ ك غافر ٤٠) . ومنها « يوم الحشر » ، « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » (٢٤ ك ق ٥٠) . ولكن أبرز هذه المفاهيم ، من ناحية التكرار والمعانى ، هى : يوم الساعة ، ويوم القيامة ، ويوم الحساب . وكل مفهوم يؤدى معنى « اللحظة المحتمة » ، كما يعرض السياق القرآنى بعض سمات هذه اللحظة ، أهمها السرعة الجارفة والمباغتة الآسرة .

« حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » (٣١ ك الأنعام ٦) ، « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة » (١٨٧ ك الأعراف ٧) ، « أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون » (١٠٧ ك يوسف ١٢) ، « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير » (٧٧ ك النحل ١٦) ، « ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » (٥٥ م الحج ٢٢) . وقد ذكر مفهوم « الساعة » فى القرآن الكريم ٤٨ مرة .

والمفهوم الثانى هو « يوم القيامة » . وقد ذكر فى القرآن الكريم سبعين مرة . ويدل هذا على الاهتمام بهذا المفهوم حيث يقدم القرآن الكريم معنى واحداً فى سبعين صورة مختلفة .

« فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (١١٣ م البقرة ٢) ، « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة » (٧٧ م آل عمران ٣) ، « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » (١٨٥ آل عمران ٣) ، « فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا » (١٠٩ م النساء ٤) ، « ونخرج له يوم القيامة كتاباً

يلقاه منشوراً » (١٣ ك الإسراء ١٧) .

والمفهوم الثالث « يوم الحساب » يبرز معنى كامناً هو الحساب ، تكون نتيجته إما عقوبة تودى بصاحبها إلى النار ، وإما مثوبة تكسب لصاحبها الجنة .

« إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢٦ ك ص ٣٨) ، « هذا ما توعدون ليوم الحساب » (٥٣ ك ص ٣٨) ، « وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » (٢٧ ك غافر ٤٠) ، « إنهم كانوا لا يرجون حساباً » (٢٧ ك النبأ ٧٨) ، « إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » (٢٥ — ٢٦ ك الغاشية ٨٨) . وقد ذكر مفهوم « الحساب » ومشتقاته ، فى القرآن الكريم ، نحو ٣٤ مرة .

ولكن يلاحظ أن القرآن الكريم يلجأ ، فى كثير من الأحيان ، إلى إعطاء معنى « الحساب » بطريقة أكثر تصويرية . فهو يأتى بكلمة « الميزان » بحيث يفهم منها طبيعة العملية . ثم لا يكتفى بهذا ، بل يجعل من « صنجة » الميزان شيئاً دقيقاً جداً ، أدق من صنجة ميزان الذهب . . . مثقال ذرة . فالميزان ، يوم القيامة ، ميزان ذرى . وبذلك يعطى القرآن الكريم صورة بالغة القوة والوضوح لمعنى الحساب . « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » (٨ ك الأعراف ٧) ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٤٧ ك الأنبياء ٢١) ، « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » (١٠٢ — ١٠٣ ك المؤمنون ٢٣) ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٧ — ٨ م الزلزلة ٩٩) ، « فأما من ثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية . وما أدراك ما هية ، نار حامية » (٦ — ١١ ك القارعة ١٠١)

واهتمام القرآن الكريم باليوم الآخر ، بالمعنى المشار إليه آنفاً ، اهتمام كبير يدل ذلك على ذكره فى آياته وسوره نحو ١١٥ مرة [٤٠].

ويوم القيامة يوم تجتمع فيه الحشود ، وتحشد الشهود ، ويحشر الخلق من يوم « آدم » إلى يوم الساعة ، ويحاسب الإنسان منا أمام هؤلاء . . . والأب والأم والأخ

والأخت والابن والبنت والجار والبعيد والعدو والحبيب ، أمام كل من خلقهم الله ...
وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود »
(١٠٣ ك هود ١١) ، « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » (٩ م التغابن
٦٤) . لا ظلم فى الحساب . . . ولا دفاع أو اعتذار أو تمسك بجاه أو أنساب . .
كل نفس بما كسبت ، وصدق الله العظيم الذى يقول : « اليوم تجزى كل نفس
بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » (١٧ك غافر ٤٠) [٤١] .

* * *

ويرى المصرى المسلم أن هذا الكون تحكمه تدابير عادلة ، ويسير وفق مشيئة عالية ، وكل ما فيه إنما هو دليل اتزان وقصد وعدالة ، فهو من ثم لا يستطيع أن يفكر فى أن هذا الوجود سينتهى إلى عدم . فهذه فوضى . . وأى فوضى . وهو لا يمكن أن يعقل أو يتخيل أنه ليس بعد هذه الحياة ، التى لا دخل للإنسان إلا أن يعيش على هامشها بقدر مقدور وعمر مسطور وأيام معدودة وأنفاس محدودة ولا يستطيع بأى حال من الأحوال أن يغير عددها أو يعدل اتجاهها ، . . إلا العدم .

ولا يمكن أن يتصور كذلك ، أو أن يقبل عقله أن من أنفق حياته الدنيا فى ملذاته الشخصية وشهواته البدنية وإشباع غرائزه الدنيوية غير محترز من حرام أو متحيز لحلال ، يتساوى مع من ترك وابتعد عن الشبهات ، ولم يستجب لنداء نفسه ، وهى أمارة بالسوء ، وأنفق حياته وهو يعلم أنه فيها غريب ، غير مقيم ، ومرتحل ، مهما طال به الحين ، فلم يستمتع بحرام ، ولم يتلذذ فى الدنيا لزهده فيها . . هل يمكن أن يتساوى الرجلان ؟ فتنتهى حياتهما على ما فعلا ، دون جزاء للأول وثواب للثانى ؟ « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » (١٨ م السجدة ٣٢) ، « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (٢٨ ك ص ٣٨) ، « أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون » (٣٥ — ٣٦ ك القلم ٦٨) .

ويرى المصريون المسلمون أنه إذا كانت حكمة الله الخبير العليم الخالق الكريم قد اقتضت أن يسجل عمل الإنسان وقوله على صورة صاحبه :

« ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (١٨ ك ق ٥٠) ، « وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين » (١٠ — ١١ ك الانفطار ٨٢) ، « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٢٩ ك الجاثية ٤٥) ، « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (٤٩ ك الكهف ١٨) — إذا اقتضت الحكمة الإلهية كل هذا ، فذلك لكى يرى الإنسان نفسه ، وكفى بنفسه عليه بعد ذلك حسيباً : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٣ — ١٤ ك الإسراء ١٧) . هذا يوم القيامة ، يوم الحساب . . فلا بد أن يكون هناك حساب ولا بد أن تكون هناك قيامة . . . وإنه يوم لا ريب فيه .

فقد يموت الظالم دون أن يستوفى الجزاء فى دنياه . وقد يموت المظلوم دون أن يستقصى حقه فى حياته . . والظالم والمظلوم إنما مرجعهما إلى الله . فإذا كان العدل الأرضى الذى أقامه الإنسان يقضى بأن يرد الظالم كل ما ظلم به غيره ، وهذا غير ما يستحق من جزاء . . فيا ترى كيف وكم يكون عدل الله ؟ . . . لابد من رد الحقوق أولا . . . وهذا مما لا يختلف فيه اثنان . أما العقاب فإن الله سبحانه ، وحده ، صاحب الأمر فيه إن شاء عفا . . وإن أراد خفف ، وإن أمر شدد :

فالقضاء ، إذن ، أمر حتمى . والحساب لابد منه ولا محيد عنه[٤٢] .

* * *

ويوم القيامة ، عند المسلمين ، يوم رهيب ، والأشد رهبة أنه لا محيد عنه إطلاقاً ، ولا ريب فيه . يوم عصيب لا مفر منه ولا هروب . . والاستعداد لملاقاته ضرورى . فطوبى للمؤمنين الصالحين ، الذين انفتحت أمام قلوبهم سبل المعرفة ، فعرفوا بأمر الله وبإرادته ومشيئته ما جعلهم يقضون حياتهم كلها فى عبادة وعمل صالح يقربهم إلى مولاهم الحق . . ولن ينفع ندم القوم الضالين ، فى يوم لا ينفع الندم . . يوم يكون الأمر قد انتهى ، والسامر قد انفض . . فلا بيع ولا شراء . . ولحظتها يقول الضال ليتنى أعود فأتزود ليوم القيامة . . ولكنها كلمة لا تعنى أكثر من الرجاء فى أمر قد انقضى وعلى الإنسان انتظار القضاء .

وقد عرف عن « على بن أبى طالب » أنه كثيراً ما شوهد وقد أرخى الليل سدوله

وهو قائم فى محرابه ، قابض على لحيته ، يبكى وينتحب ويقول : « آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد » . . . لقد عرف ، رضى الله عنه ، من الحقائق ما جعله يقف هذا الموقف ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل وليس بينه وبينه حجاب فيقول له : ألم أنعم عليك ؟ ألم أوتك مالا؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أرسل إليك رسولا ؟ فيقول : بلى ، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة » .

إن أهوال يوم القيامة ، كما تبدو فى آيات القرآن الكريم ، لمما لا تخطر على بال ، « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢ م الحج ٢٢) ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (٣٣ ك لقمان ٣١) ، « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » (٣٤ – ٤٢ ك عبس ٨٠) [٤٣] .

وإذا كان القبر أول منزل من منازل الآخرة ، والمرحلة الأولى من مراحلها ، فإن البعث هو المرحلة التالية . ويسبق البعث النفخ فى الصور مرتين ، إيذاناً بقيام يوم الساعة .

وقد ذكر مفهوم « الصور » فى ثنايا آيات القرآن الكريم وسوره عشر مرات . « قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور » (٧٣ ك الأنعام ٦) ، « ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً » (٩٩ م الكهف ١٨) ، « يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » (١٠٢ ك طه ٢٠) ، « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٦٨ ك الزمر ٣٩) ، « يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً » (١٨ ك النبأ ٧٨) [٤٤] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما الصور ؟ قال « قرن ينفخ فيه » رواه أبو داود والترمذى

وحسنه وابن حبان فى صحيحه . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ . فكان ذلك ثقلا على أصحابه فقالوا : فكيف نفعل يا رسول الله أو نقول ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ، وربما قال توكلنا على الله» رواه الترمذى ، واللفظ له وقال حديث حسن ، وابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد والطبرانى من حديث « زيد بن أرقم » ومن حديث ابن عباس أيضاً. وعن عبد الله بن الحرث قال : « كنت عند عائشة وعندها كعب الأحبار فذكر إسرافيل ، فقالت عائشة : يا كعب أخبرنى عن إسرافيل ، فقال كعب : عندكم العلم ، قالت : أجل ، قالت : فأخبرنى ، قال : له أربعة أجنحة جناحان فى الهواء وجناح قد تسربل به وجناح على كاهله والقلم على أذنه فإذا نزل الوحى كتب القلم ثم درست الملائكة وملك الصور جاث على إحدى ركبتيه وقد نصب الأخرى فالتقم الصور يحنى ظهره وقد أمر إذا رأى إسرافيل قد ضم جناحه أن ينفخ فى الصور . فقالت عائشة هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول » ، رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن . وعن أبى مرية عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « قال : النافخان فى السماء الثانية رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب ، أو قال رأس أحدهما بالمغرب ورجلاه بالمشرق ينتظران متى يؤمران أن ينفخا فى الصور فينفخان » رواه أحمد بإسناد جيد هكذا على الشك فى إرساله أو اتصاله .

ومراد نفخة الصور الأولى هو صعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، والمقصود بالصعق الموت من الفزع وشدة الصوت . وقد اختلف الناس فى المستثنى من هو ؟ فقيل هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل الشهداء ، وقيل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وقيل حملة العرش ، وقيل الملائكة ، وقيل هم الحور والولدان . ويرى « العباس القرطبى » أن الصحيح أنه لم يرد فى تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل(٤٥) .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس فلا تزال

ترتفع فى السماء وتنتشر حتى تملأ السماء ثم ينادى مناد يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فوالذى نفسى بيده إن الرجلين ينشران الثوب فلا يطويانه وإن الرجل ليمدر حوضه فلا يسقى منه شيئاً أبداً والرجل يحلب ناقته فلا يشربه أبداً » رواه الطبرانى بإسناد جيد رواته ثقاة مشهورون . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقوم الساعة وثوبهما بينهما لا يبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف بلبن لقحته لا يطعمه ، ولتقوم الساعة يلوط حوضه لا يسقيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع لقمته إلى فيه لا يطعمها » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه .

وعند نفخة الصور الثانية يبعث الناس ويحيون ويقومون كلهم أحياء حتى السقط الذى نفخ فيه الروح وتم خلقه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين النفختين أربعون . قيل : أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شىء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة . رواه « البخارى» و « مسلم » ، ولمسلم « قال : إن فى الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا : أى عظم هو يا رسول الله ؟ قال : عجب الذنب » ، ورواه مالك وأبو داود والنسائى باختصار ، « قال : كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب» . وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأكل التراب كل شىء من الإنسان إلا عجب ذنبه ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : مثل حبة خردل منه تنشئون » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه .

وفى الحديث ، أيضاً ، مرفوعاً « يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى لله خلق فى السموات والأرض إلا مات إلا من شاء الله وليس من بنى آدم خلق إلا وفى الأرض منه شىء يعنى عجب الذنب ، ثم يرسل الله تعالى ماء من تحت العرش منى كمنى الرجال فتنبت أجسامهم ولحومهم كما تنبت الأرض من التراب ، ثم يقوم ملك الصور بين السماء فينفخ فيه فتنطلق كل نفس إلى جسدها حتى تدخل

فيه ، ثم يقومون فيجيبون إجابة واحدة » .

ويبعث كل عبد على ما مات عليه ، وروى البخارى وغيره مرفوعاً « إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم » . فمن يقتل صابراً محتسباً بعث صابراً محتسباً ، ومن يقتل مرائياً مكاثراً بعث مكاثراً مرائياً ، ومن مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران ، ويعاين منكراً ونكيراً سكران ، ويبعث يوم القيامة سكران إلى خندق فى وسط جهنم يسمى السكران فيه عين تجرى ماء ودماً لا يكون له طعام ولا شراب إلا منها » . وفى الحديث مرفوعاً « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا فى قبورهم ولا فى منشرهم ، كأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » . وروى مسلم وابن ماجة مرفوعاً « تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء عليها جلباب من لعنة الله ودراع من نار ويدها على رأسها تقول : يا ويلاه » .

وقيل إن الميت يبعث فى ثيابه التى قبض فيها ، وفى الصحاح وغيرها أن الناس يبعثون عراة . وتكون أرض يوم القيامة بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم . ويحشر الكافرون على وجوههم ، ومن الناس من يكونون راكبين ، ومنهم من يمشون ويسعون . ويبعث المتكبرون فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم . وكان « ابن العباس » و « مجاهد » وغيرهما يقولون فى قوله تعالى « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (٢٧٥ م البقرة ٢) : المعنى لا يقومون من قبورهم إلا وأحدهم يجعل معه شيطان يخنقه ، وقال بعض العلماء : إن الربا يربو فى بطونهم فيثقلهم إذا خرجوا من قبورهم فيقومون ويسقطون لعظم بطونهم وثقلها عليهم ، فيجعل الله تعالى هذه العلامة لأكلة الربا يعرفون بها فى المحشر .

وقيل إن الناس يعرقون ، يوم القيامة ، حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعاً . وتدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل . وقيل إن يوم القيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة ، وقيل إن مقداره نصف ذلك . وتوضع للمؤمنين ، يومئذ ، كراسى من نور ويظل عليهم الغمام ، ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار [٤٦] .

* * *

ويوم الحساب ، عند المصريين المسلمين ، يوم آت ، لا ريب فيه ، يكون الديان فيه هو الله جل جلاله . وهو يوم تؤدى فيه الحقوق إلى أهلها ، ويقتص فيه للخلق بعضهم من بعض حتى للجلحاء من القرناء وحتى للذرة من الذرة . عن أبي هريرة رضى الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » ، رواه « مسلم » و « الترمذى » ، ورواه « أحمد » ولفظه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقتص للخلق بعضهم من بعض حتى للجماء من القرناء وحتى للذرة من الذرة » ورواته رواة الصحيح .

ويسأل المرء ، يوم القيامة ، عن السمع والبصر والفؤاد ، قال الله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (٣٦ ك الإسراء ١٧). وقال تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » (٨ ك التكاثر ١٠٢) ، ويقصد بـ « النعيم » ما يلتذ به فى الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب ، وقيل إن « النعيم » هو الأسودان : التمر والماء[٤٧] .

وقيل إن العبد ، يوم القيامة ، يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه : وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه . وقيل إن ما من عبد خطا خطوة إلا يسأل عنها ما أراد بها . ويسأل العبد ، أيضاً ، عن جاهه . وروى « مسلم » مرفوعاً « يدنى الله تعالى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه أى ستره وكرمه وملاطفته فيقرره بذنوبه فيقول : أتعرف ذنب كذا فى يوم كذا ، فيقول : أعرف ، فيقول الله عز وجل : أنا سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكافر والمنافق فينادى عليهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

ومناقشة الحساب عذاب وهلاك . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من نوقش الحساب عذب . . فقلت : أليس يقول الله « وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً » (٧ ــ ٩ ك الانشقاق ٨٤) . . . فقال : إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « قال : يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ، ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله عليه ، فيقول الله لأصغر نعمة أحسبه قال : فى ديوان النعم ، خذى ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح ثم تنحى وتقول : وعزتك ما استوفيت ، وتبقى الذنوب والنعم وقد ذهب العمل الصالح . فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال : يا عبدى قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك أحسبه قال : ووهبت له نعمى » رواه البزاز ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما « أن رجلا من الحبشة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والنبوة أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به وعملت بمثل ما عملت به أنى لكائن معك فى الجنة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم . . ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ، ومن قال سبحان الله كتب له مائة ألف حسنة . فقال رجل : يا رسول الله كيف نهلك بعد هذا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده إن الرجل ليجىء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستنفد ذلك كله لولا ما يتفضل الله من رحمته ثم نزلت « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إلى قوله « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » (١ — ٢٠ م الإنسان ٧٦) فقال الحبشى : يا رسول الله وهل ترى عينى فى الجنة مثل ما ترى عينك ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم ، فبكى الحبشى حتى فاضت نفسه . . قال ابن عمر : فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه فى حفرته » رواه الطبرانى من رواية أيوب بن عتبة .

وقد قيل إن أول الأمم حشراً وحساباً هى الأمة الأمية (أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) ونبيها . . ، وإن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء ، وفى رواية أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة وأول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء . .

وتشهد أعضاء العبد عليه يوم القيامة . . تتكلم الأيدى وتشهد الأرجل والألسنة والجلود . . قال الله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم

بما كان يكسبون » (٦٥ ك يس ٣٦) ، وقال تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ م النور ٢٤) ، وقال تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » (٢١ ك فصلت ٤١) . وتشهد كذلك ، على بنى آدم ، يوم القيامة . . . الأرض والليالى والأيام بما عملوا عليها وفيها . . . ويشهد ، أيضاً ، المال على صاحبه . . . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » (٢١ ك ق ٥٠) قال : سائق يسوقها إلى أمر الله وشاهد يشهد عليها بما عملت(٤٨) .

* * *

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم حوضان كلاهما يسمى كوثراً أى خيراً كثيراً ، وقيل فأما أحدهما فيكون إذا خرج الناس من قبورهم وأما الثانى فيكون بعد الصراط . وللأنبياء ، أيضاً ، حيضان . . ويقال إن منها ما هو قبل الصراط والميزان ومنها ما هو بعدهما . . وذهب بعض أهل الكشف إلى أن الحوض فى وسط الصراط وهو حوض عظيم متسع جداً كما نبه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقوم : إن حوضى ما بين الكعبة وبيت المقدس » ، وقيل : « ما بين عدن إلى عمان » ، وقيل «مسيرة شهر » وقيل « إن ما بين جنبتى الحوض كما بين صنعاء والمدينة » .

وماء حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض كاللبن . . . وقيل أبيض كالورق ، وريحه أطيب من المسك ، وهو ماء أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ أبداً ومن لم يشرب منه لم يرو أبداً . . . وعن أبى أمامة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب ، فقال يزيد الأخنس : والله ما أولئك فى أمتك إلا كالذباب الأصهب فى الذباب . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد وعدنى سبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً وزادنى ثلاث حثيات . . . فقال : فما سعة حوضك يا نبى الله ؟ قال كما بين عدن إلى عمان وأوسع وأوسع يشير بيده قال : فيه مثعبان من ذهب وفضة ، قال : فماء حوضك يا نبى الله ؟ قال : أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ولم يسود وجهه أبداً» رواه أحمد

ورواته محتج بهم فى الصحيح وابن حبان فى صحيحه . . .

وقيل إنه من الوهم أن يخطر فى بال أحدهم أن ماء الحوض يكون على وجه الأرض بحسب ما قد يفهم من ظاهر الأحاديث ، وإنما هو فى أخدود فى بطن الأرض على عادة الأنهار فى الدنيا . . وقال بعضهم إن الحوض الأول يكون على الأرض التى بدلت ، والثانى يكون بعد الصراط(٤٩) .

* * *

وقد انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على أن وزن الأعمال حق وأوجبوا الإيمان بذلك . أما المعتزلة فقد أنكرت وزن الأعمال لكونها أعراضاً ، والأعراض يستحيل وزنها عندهم ، إذ لا تقوم بنفسها . . . وتوزن الأعمال إذا انقضى الحساب ، لأن الوزن للجزاء فلذلك كان بعد المحاسبة . لأن المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . . قال تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » (٤٧ ك الأنبياء ٢١) . وقال الله تعالى « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » (٦ — ٩ ك القارعة ١٠١) . وفى قوله تعالى « ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » (١٠٣ ك المؤمنون ٢٣) ، و يلاحظ أن فى هذه الآية إخباراً بوزن الأعمال أى للكفار . . لأنهم هم الذين تخف موازينهم لتكذيبهم بالآيات فى نحو قوله تعالى « فكنتم بها تكذبون » (١٠٥ ك المؤمنون ٢٣) ، وفى قوله تعالى « بما كانوا بآياتنا يظلمون » (٩ ك الأعراف ٧) ، وفى قوله تعالى « فأمه هاوية » (٩ ك القارعة ١٠١) ، ومثل هذا الوعيد فى رأى « الشعرانى » لا يكون على إطلاقه إلا على الكفار . . . فإذا جمع بينه و بين قوله تعالى « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٤٧ ك الأنبياء ٢١) ، ثبت أن الكفار يسألون عما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه ، قال تعالى « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » (٦—٧ فصلت ٤١) ، فيوعدهم على منعهم الزكاة . وأخبر سبحانه وتعالى عن المجرمين أنه يقال لهم «ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين» (٤٢— ٤٣ ك المدثر ٧٤).

وللميزان ملك موكل به ، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً . وإن

خفّ ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.
ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، لا يدخل النار وهو يطمع
فى الجنة . . روى خيثمة بن سليمان فى مسنده عن جابر : أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت
حسناته على سيئاته مثقال نواة دخل الجنة، ومن رجحت سئياته على حسناته
مثقال نواة دخل النار . فقيل : يا رسول الله فمن استرت حسناته وسيئاته ؟ قال
أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » . وأهل الأعراف يسمون
بمساكين أهل الجنة يوم القيامة ، وقيل إنهم آخر الناس دخولا الجنة . والأعراف
سور بين الجنة والنار . . وعن سلمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم
قال: يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لو وضعت . . فيقول
الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله : لمن شئت من خلقى، فيقولون سبحانك
ما عبدناك حق عبادتك » رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وفى الحديث أن كفة الحسنات تكون من نور وكفة السيئات تكون من ظلام .
وروى الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
إن الجنة توضع عن يمين العرش والنار عن يسار العرش وكفة الحسنات عن يمين
العرش وكفة السيئات عن يسار العرش ، فتكون الجنة مقابلة للحسنات ،والنار
مقابلة للسيئات » . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : توزن الحسنات والسيئات
فى ميزان له كفتان ولسان » (٥٠) .

* * *

ويوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة مزلة عليه
كلاليب من نار ، وقيل إنه جسر على جهنم دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب .
وكان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول : بلغنى أن الجسر أرق من الشعر وأحد
من السيف وفيه كلاليب وخطاطيف . وكان سعيد بن أبى هلال رضى الله عنه
يقول : بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على المتقين مثل الوادى الواسع بحسب
كثرة أعمالهم الصالحة ، وكذلك سرعة المرور على الصراط تكون بحسب قوة الهمة
والنشاط للعبادة ، فإذا قال : يا رب لم جعلتنى بطيئاً على الصراط فيقول له : بحسب

بطئك عن عبادتى فى أول وقتها . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمون المنازل بأعمالكم . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، أيضاً « قال : يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة مزلة عليه كلاليب من نار يخطف بها فممسك يهوى فيها ومصروع ، ومنهم من يمرون كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو ثم كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو ثم كجرى الفرس ثم كرمل الرجل ثم كمشى الرجل ثم يكون آخرهم إنساناً رجل قد لوحته النار ولقى فيها شراً حتى يدخله الله الجنة بفضل رحمته فيقال له : تمن: فيقول : أى رب أتهزأ بى وأنت رب العزة ، فيقال له : تمن وسل حتى إذا انقطعت به الأمانى قال : لك ما سألت ، ومثله معه » رواه الطبرانى بإسناد حسن . وفى الحديث « الزالون على الصراط كثير ، وأكثر من يزل النساء » ذكره أبو الفرج بن الجوزى رحمة الله . وفى الحديث ، أيضاً ، « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا صار الناس على طرف الصراط نادى ملك من تحت العرش : يا فطرة الملك الجبار جوزوا على الصراط ، وليقف كل من عصاه منكم . فيا لها من ساعة » . وفى الحديث الصحيح أنه « يحبس على الصراط كل من تكلم فى عرض أخيه بما لا يعلم ، ويقال له : أثبت هنا ما قلته فى حق أخيك ، فإن لم يثبته تزل قدمه فى النار » . وفى الحديث ، أيضاً ، « إذا عصف الصراط بأمتى نادوا : وامحمداه . . وامحمداه ، فأبادر من شدة إشفاقى عليهم وجبريل آخذ يحجزنى فأنادى رافعاً صوتى : يا رب أمتى أمتى لا أسألك اليوم نفسى ولا فاطمة ابنتى . . والملائكة قياماً عن يمين الصراط ويساره ينادون : رب سلم سلم » .

قال الإمام الغزالى وغيره رحمهم الله « لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل فى سبع قناطر » وقد ذكر الأسئلة . . الأول عن الإيمان بالله ، ثم عن الصلاة ، ثم عن صوم رمضان ، ثم عن الزكاة ، ثم عن الحج والعمرة ، ثم عن الغسل من الجنابة والوضوء ، ثم أخيراً يسأل فى القنطرة السابعة وهى أصعب القناطر عن ظلمات الناس .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتاب « الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة » أنه إذا لم يبق فى الموقف « إلا المؤمنون والمسلمون المحسنون والعارفون والصديقون والشهداء

والصالحون والمرسلون ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولازنديق فيقول الله تعالى : يا أهل الموقف . . من ربكم ؟ فيقولون : الله . . فيقول لهم : تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . . فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش لوجعلت البحار السبعة فى نقرة إبهامه ما ظهرت ، فيقول لهم : أنا ربكم بأمر الله . . فيقولون: نعوذ بالله منك . . فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر فى نقرة إبهامه ما ظهرت ، فيقول : أنا ربكم . . . . فيتعوذون بالله منه . . ثم يتجلى لهم الله تعالى فى الصورة التى كانوا يعرفونها ، وسمعوه وهو يضحك . . فيسجدون له جميعهم فيقول : أهلابكم . . ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة . . فيتبعونه فيمر بهم على الصراط والناس أفواج أعنى المرسلين ثم النبيين ثم الصديقين ثم المحسنين ثم الشهداء ثم العارفين . . ويبقى المسلمون منهم المكبوب على وجهه . . ومنهم المحبوس فى الأعراف . . ومنهم قوم قصروا عن تمام الإيمان ، منهم من يجوز الصراط على مائة عام وآخر يجوز على ألف عام . . ومع ذلك كله لم تحرق النار كل من رأى ربه عياناً لا يضام فى رؤيته (أى لا يشك فيها) »(٥١) .

* * *

وقد وصف القرآن الجنة ، وأكثر ذلك فى سورة الواقعة (ك ٥٦) وسورة الرحمن (م ٥٥) ، وفى سورة الغاشية (ك ٨٨) وسورة الإنسان (م ٧٦) . وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث ستة بأوضح بيان . روى عن مسلم وغيره « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما اطلعتم عليه (أى غير ما اطلعتم عليه) ، ثم يقرأ صلى الله عليه وسلم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » . (١٧ م السجدة ٣٢) . وروى ابن ماجة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه : ألا مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر يطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة فى مقام أبداً فى حبرة ونضرة فى دار عالية سليمة بهية قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله . . قال : قولوا إن شاء الله » . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه « قال : قلت يا رسول الله

ممن خلق الخلق ؟ قال : من الماء . . قلت : فما بناء الجنة ؟ فقال : لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران من دخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم » .

وفى الجنة أنهار . . منها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولأصحابها فيها من كل الثمرات . وتخرج الجنة من تحت تلال أوجبال المسك . . وقيل إن جبال أحد والطور ولبنان من جبال كما الجنة ، ا قيل إن أنهار النيل والفرات وسيحان وجيحان من أنهار الجنة . . وفى الجنة شجر يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود » (٢٧ — ٣٠ ك الواقعة ٥٦) .

وللجنة أبواب ثمانية ، ولها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . . والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة . ومن فوقها يكون العرش . . وللجنة أيضاً غرف ، قال الله تعالى « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد » (٢٠ ك الزمر ٣٩) . وبالجنة قصور ودور وبيوت ، وبها نساء مرتفعات الأقدار فى الحسن والكمال . وفى الجنة كذلك خيام وبها أسواق . . وتجد الخيمة من لؤلؤ مجوفة عرضها ستون ميلاً . . وتحف الملائكة بالسوق لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع به الآذان ولم يخطر على القلوب فيحمل لأهل الجنة ما يشتهون ليس يباع فيها ولا يشترى . .

والحرير لباس أهل الجنة ، والخمر شرابهم ، وآنية الذهب آنيتهم . وأهل الجنة منازل . لا يبولون ولا يغوطون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب والفضة ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض . . قلوبهم على قلب رجل واحد ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على طول أبيهم آدم وعلى صورته ستون ذراعاً فى السماء . والنساء فى الجنة أكثر من الرجال كأنهن الياقوت والمرجان ، وما فى الجنة أعزب . . وأهل الجنة جرد مرد مكحولون أبناء ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين لا يزيدون عليها . . وإن لهم أن يصحوا فلا يسقموا أبداً ، وإن لهم أن يحيوا فلا يموتوا أبداً ، وإن لهم أن يشبوا فلا يهرموا أبداً ، وإن لهم أن ينعموا فلا يبأسوا

أبداً ، وذلك قول الله عز وجل « ونودوا أن تلكمُ الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » (٤٣ ك الأعراف ٧) . كانوا يتكلمون يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة بالسريانية فإذا دخلوا الجنة تكلموا بالعربية . . وإذا كشف الله تعالى عنهم الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل [٥٢] . . .

* * *

والنار حق عند المسلمين المصريين . ومن أسمائها لظى وسقر وهاوية ، وهى النار الحامية والجحيم وجهنم . . وقد أمر الله تبارك وتعالى بجهنم فأوقد عليها ألف عام ، حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت . . فهى سوداء مظلمة لا يضىء شرارها ولا يطفأ لهيبها . . ولو قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعاً من حره . . ولو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم من قبح وجهه ومن نتن ريحه . . . ولو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت حتى ينتهى إلى الأرض السفلى . . . قال الله تعالى : « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » (٣٢ ك الحاقة ٦٩) .

وحر جهنم شديد ، ونارها أشد من نار الدنيا . . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم . . . قالوا والله إن كانت لكافية . . قال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى وليس عند مالك « كلهن مثل حرها » . ووقود النار الناس والحجارة . . قال تعالى : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » (٦ م التحريم ٦٦) .

وللنار أودية وجبال . . ومن الأودية « الويل » وهو واد بين جبلين يهوى فيه الكافر سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره . . ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم « قال : «فى قوله تعالى " كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً" (١٧ ك المدثر ٧٤).. قال : جبل من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله عليه ذابت فإذا رفعها عادت . . يصعد سبعين خريفاً ثم يهوى » . . ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه « فسوف يلقون غياً » (٥٩ ك مريم ١٩) قال :

« واد فى جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات » ، وفى رواية للبيهقى « قال : نهر فى جهنم بعيد القعر خبيث الطعم » . وعن أنس بن مالك فى قوله « وجعلنا بينهم موبقاً » (٥٢ ك الكهف ١٨) قال واد من قيح ودم » .. وعن على رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن . . قيل يا رسول الله : وما جب الحزن أووادى الحزن ؟ قال : واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله للقراء المرائين » . وعن شفى بن ماتع قال « إن فى جهنم قصراً يقال له هوى ، يرمى الكافر من أعلاه أربعين خريفاً قبل أن يبلغ أصله ... » قال الله تعالى « ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » (٨١ ك طه ٢٠) .

وجهنم بعيدة القعر ، يلقى الحجر من شفيرها فيهوى فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً . وأهل جهنم فى أغلال وسلاسل يعيشون فى النار تلتهمهم الحيات والعقارب . . . حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً ، وعقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة .

وشراب أهل النار المهل وهو كعكر الزيت إذا قرب إلى وجه ابن آدم سقطت فروة وجهه فيه . . . وأهل الناس يشربون أيضاً الحميم . . قال الله تعالى « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » (١٥ م محمد ٤٧) ، كما يسقون من ماء صديد يتجرعونه ، ويذوقون غساقاً .

ويأكل أهل النار الزقوم وطعاماً من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع أو طعاماً ذا غصة وهو الشوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج ...

ويعظم أهل النار فى النار ويقبح منظرهم وينتن ريحهم .. ويتفاوتون فى العذاب . وإن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً . . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفحة لم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب » . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فيؤخذ بالنواصى والأقدام » (٤١ م الرحمن ٥٥) قال :

« يجمع بين رأسه ورجليه ثم يقصف كما يقصف الحطب . . . » . وروى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ الآية : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (٥٦ م النساء ٤) قال : «يا كعب أخبرنى عن تفسيرها فإن صدقت صدقتك وإن كذبت رددت عليك فقال : إن جلد ابن آدم يحرق ويجدد فى ساعة أو فى مقدارها ستة آلاف مرة . . قال : صدقت » .

ولأهل النار فيها زفير وشهيق ويرسل عليهم البكاء فيبكون يقولون : « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » (١٠٦ — ١٠٧ ك المؤمنون ٢٣) فيجابون « اخسئوا فيها ولا تكلمون » (١٠٨ ك المؤمنون ٢٣) عند ذلك ييئسون من كل خير ويأخذون فى الزفير والشهيق . . وعن عبد الله بن قيس مرفوعاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن فى دموعهم لجرت وإنهم ليبكون الدم مكان الدمع »[٥٣] .

* * *

وأهل الجنة هم فيها خالدون، وأهل النار هم فيها خالدون .. فالمرد إلى الله، إلى جنة أو نار، خلود بلا موت، وإقامة بلا ظعن . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة كهيئة كبش أملح فينادى به مناد : يا أهل الجنة . . فيشرئبون وينظرون . . فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت . . وكلهم قد رأوه . ثم ينادى مناد : يا أهل النار . . فيشرئبون وينظرون . . فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . . وكلهم قد رأوه . . فيذبح بين الجنة والنار . . ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت . . ويا أهل النار خلود فلا موت . . ثم قرأ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » (٣٩ ك مريم ١٩) ، وأشار بيده إلى الدنيا » [٥٤] .

المراجع والتعليقات

١ – يلاحظ القارئ أن فكرة كون الأرض مسطحة وليست كروية كانت ، على وجه العموم ، مقبولة عند الأغلبية الساحقة من الناس فى المجتمعات العديدة ، قبل اكتشاف كروية الأرض .

٢ – Encyclopaedia Britannica : Great Britain, vol. 12, 1957, pp. 107-108. —

٣ – Corliss Lamont, "The Illusion of Immortality", London, Watts and Co., 1952, pp. 1-2. —

٤ – Encyclopaedia Britannica : vol. 12, p. 108. —

٥ – إن أقدم مثال لعيد « كل الأرواح » قد سجله « برستد » وهو يصف الأعياد التى كان يحتفل بها فى المدينة الإقليمية التى كان يحكمها « حيزافى » ، وهو شريف ثرى كان يحكم مقاطعة أسيوط فى القرن العشرين قبل الميلاد . وكان الاحتفال بهذه الأعياد يعم الأحياء والأموات على السواء . ويشاهد مثل ذلك ، إلى اليوم ، بالجبانات الإسلامية فى مصر فى أيام عيد الفطر وباقى الأعياد الإسلامية .

(انظر جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، الألف كتاب(١٠٨) ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦ ، صفحات ٢٤٠ – ٢٤٥) .

٦ – "The Illusion of Immortality"; pp. 2-9. —

٧ – Encyclopaedia Britannica : vol. 12, p. 108. —

٨ – The Illusion of Immortality : pp. 9-11. —

٩ – فجر الضمير : صفحتا ٦٣ – ٦٤ .

١٠ – جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ، صفحتا ٤٧ – ٤٨ .

١١ – Alan H. Gardiner, "The Attitude of The Ancient Egyptians to Death & the Dead", Cambridge at the University Press, 1935, p. 5. —

١٢ – سلامة موسى : مصر أصل الحضارة ، القاهرة ، المطبعة العصرية ، صفحات ٥٧ ، ٦٣ – ٦٥ .

انظر أيضاً :

– سليم حسن : المظاهر الحضارية(ا) الحياة الدينية وأثرها فى المجتمع ، الديانة المصرية القديمة وأصولها – تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، عدد ٣ ، صفحة ٢١٥.

انظر أيضاً :

– الحضارة المصرية : صفحة ٦٦ .

١٣ – فجر الضمير : صفحة ٦٤ .

١٤ – إتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ، تعريب عباس بيومى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، صفحتا ٩٧ – ٩٨ .

انظر أيضاً :

– أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، صفحة ٣٢٧ .

١٥ – فجر الضمير : صفحات ٦٤ – ٦٧ .

١٦ – المظاهر الحضارية (ا) الحياة الدينية وأثرها فى المجتمع ، الديانة المصرية القديمة وأولها : صفحة ٢١٦ .

١٧ – إن ظاهرة بناء ما يشبه البيوت فى المقابر «حيشان» وإن ظاهرة اتخاذ الأحياء هذه « الحيشان » سكناً لهم ، التى نجدها فى الوقت الحاضر ، تعتبران تحقيقاً لهذه الفكرة ، فكرة أن المعبد والقبر وبيت الأحياء ، كلها تتشابه تشابهاً كبيراً .

١٨ — "The Attitude of the Ancient Egyptians to Death and The Dead", pp. 10-12.

١٩ – يرى « سليم حسن» أن هناك مشابهة بين هذه العبارة وبين الآية القرآنية الكريمة : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٤٧ م الحج ٢٢) .

٢٠ – عملية التطهير عملية فرضتها وأكدتها المتون بتكرار ممل . وكان هذا التطهير ، فى العادة ، بالماء بصبه فوق البدن ، أو بالاستحمام فى البحيرة المقدسة الواقعة فى الحقول المباركة. ويظن « سليم حسن » أن ذلك يقابل بالضبط . . فى الديانة الإسلامية « غسل الميت قبل دفنه » . (فجر الضمير : صفحة ٩١) .

٢١ – فجر الضمير : صفحات ٢٦٦ – ٢٧١ .

٢٢ – المظاهر الحضارية (ا) الحياة الدينية وأثرها فى المجتمع ، الديانة المصرية القديمة وأصولها : صفحات ٢١٧ – ٢٢٠ .

انظر أيضاً :

— Donald A - Mackenzi, "Egyptian Myth and Legend", London, the Gresham Publishing Co., 1913. p. 96.

انظر أيضاً :

– فجر الضمير : صفحات ٩٨ – ١٠٨ .

٢٣ – لعل هذا الحيوان البشع أقرب ما يكون إلى «التنين » المذكور فى صلاة المصريين المسيحيين على القبر حيث يقال : «وليضمحل حنق التنين » (انظر حنا غبريال : كتاب التجنيز أى صلوات الموتى ، القاهرة ١٩٢٨ ، صفحة ٢١) .

٢٤ – فجر الضمير : صفحات ٢٧١ – ٢٧٩ .

انظر أيضاً :

– المظاهر الحضارية : الحياة الدينية وأثرها على المجتمع – الديانة المصرية القيمة وأصولها ، صفحات ٢٢٧ – ٢٣١ .

انظر أيضاً :

– مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة : صفحتا ٣٢٨ – ٣٢٩ .

انظر أيضاً :

— "Egyptian Myth and Legend" : pp. 96-101.

٢٥ – المقصود هو إله الشمس ، وهو « خبرى » فى الصباح ، و « رع » فى الظهر ، و « أتوم » فى شمس الغروب (انظر « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة : صفحة ٢٨٧ ، وانظر أيضاً « مصر » صفحة ٧٦) .

٢٦ – المظاهر الحضارية : الحياة الدينية وأثرها على المجتمع – الديانة المصرية القديمة وأصولها : صفحتا ٢٣١ – ٢٣٢ .

٢٧ – فجر الضمير : صفحات ١٢١ – ١٢٨ ، انظر أيضاً صفحة ١٠٧ .

٢٨ – منسى حنا : طريق السماء ، القاهرة ، مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية ، صفحة ٢٢٠ .

انظر أيضاً :

– زكى شنودة : تاريخ الأقباط ، الجزء الأول ، القاهرة ، جمعية التوفيق القبطية ، لجنة التاريخ والنشر ، ١٩٦٢ ، صفحتا ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

انظر أيضاً :

– صموئيل تادرس : الجوهر فى بطلان المطهر ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، ١٩٤٩ ، صفحات ١٠٠ – ١١١ .

ويلاحظ ما يأتى :

أطلق الكاهن « نفرر وهو » فى نبوءاته التى ألقاها فى حضرة الملك « سنفرو » (٢٦٥٠ ق . م) ، تعبير « ابن الإنسان » حيث يقول معلناً قدوم الملك الذى سيخلص مصر مما حاق بها : سيأتى ملك من الجنوب اسمه « أمينى » ، وهو ابن امرأة نوبية الأصل وقد ولد فى الوجه القبلى ، وسيتسلم التاج الأبيض ، ويلبس التاج الأحمر ، فيوحد بذلك التاج المزدوج ، سينشر السلام فى الأرضين (يعنى مصر) على الوجه الذى يحبه أهلها . . . وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الإنسان اسمه باقياً أبد الآبدين » (انظر فجر الضمير : صفحتا ٢١٥ – ٢١٦) .

٢٩ – نلاحظ عند ما خاطب أقارب « بحيرى » ، وهو أمير من أمراء « الكاب » بعد موته ، دعوا له بقولهم : « ليتك تعيش فى الآخرة بقلب فرح وفى كنف الإله الذى فيك » (فجر الضمير : صفحة ٢٧١) .

٣٠ – حافظ داود : الدسقولية أو تعاليم الرسل : القاهرة ، مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٠ ، صفحات ١٢٣ – ١٢٤ .

انظر أيضاً :

– سمعان سليدس علم : القول اليقين فى الصلاة على المنتقلين ، القاهرة ، مطبعة الشمس ، صفحتا ٤ – ٥ وصفحات ٨ – ١٠ .

٣١ – القول اليقين فى الصلاة على المنتقلين : صفحات ٥ – ٨ .

٣٢ – طريق السماء : صفحات ٢٢٠ – ٢٢٩ .

انظر أيضاً :

– القول اليقين فى الصلاة على المنتقلين : صفحة ٢٦ .

انظر أيضاً :

حبيب سعد : ماذا بعد الموت ؟ القاهرة ، دار الشرق والغرب ، صفحة ٢٣ .

انظر أيضاً :

— تاريخ الأقباط ، الجزء الأول ، صفحات ٢٦٧ — ٢٦٩ .

٣٣ — طريق السماء : صفحات ٢٣٩ — ٢٦٠ .

انظر أيضاً :

— تاريخ الأقباط ، الجزء الأول ، صفحتا ٢٥٠ — ٢٥١ .

٣٤ — طريق السماء : صفحات ٢٦١ — ٢٦٣ .

انظر أيضاً :

— تاريخ الأقباط ، الجزء الأول ، صفحتا ٢٥١ — ٢٥٢ .

انظر أيضاً :

— القول اليقين فى الصلاة على المنتقلين : صفحة ٥ .

٣٥ — على رفاعى محمد : مواكب الأرواح إلى عالم الأفراح ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٩٥٧ ، صفحتا ٤٨ — ٤٩ .

انظر أيضاً :

— شمس الدين أبو عبد الله بن القيم : الروح لابن القيم ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، ١٩٥٧ ، صفحة ٣٦ .

٣٦ — الروح لابن القيم : صفحات ٤٢ — ٥٠ .

انظر أيضاً :

— مواكب الأرواح إلى عالم الأفراح : صفحات ٤٩ — ٥٢ .

٣٧ — الروح لابن القيم : صفحات ٥٣ — ٥٧ .

انظر أيضاً :

— مواكب الأرواح إلى عالم الأفراح : صفحات ٥٩ — ٦٣ .

انظر أيضاً :

— السيد سابق : فقه السنة ، الجزء الرابع ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، صفحات ١٨١ — ١٩١ .

٣٨ — الروح لابن القيم : صفحات ١١٥ — ١١٧ .

انظر أيضاً :

— فقه السنة : الجزء الرابع ، صفحات ١٩١ — ١٩٥ .

٣٩ — السيد سابق : إسلامنا ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦١ ، صفحات ٢٧ — ٢٩ و ٣٢ و ٣٤ و ٣٥ .

٤٠ — محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٣٧٨ هـ ، صفحات ٢١ — ٢٣ ، وصفحة ٢٠١ ، وصفحتا ٣٧٠ — ٣٧١ ، وصفحتا ٥٨١ — ٥٨٢ ، وصفحة ٧٥٠ .

٤١ — عبد الرازق نوفل : طريق إلى الله ، القاهرة ، مؤسسة الخانجى ، ١٩٦٢ ، صفحتا ١٤٤ — ١٤٥

٤٢ — نفس المرجع : صفحات ١٤٠ — ١٤٤ .

٤٣ – نفس المرجع : صفحات ١٤٤ – ١٥٦ .
٤٤ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صفحة ٤١٦ .
٤٥ – عبد الوهاب الشعرانى : مختصر تذكرة الإمام القرطبى ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ، صفحة ٣٩ .
انظر أيضاً :
الحريفيش : الروض الفائق فى المواعظ والرقائق ، القاهرة ، مكتبة الجمهورية ، صفحة ١٩١ .
انظر أيضاً :
قرآن كريم : تفسير الإمامين الجليلين ، القاهرة ، مكتبة صبيح ، صفحة ٣٩١ .
٤٦ – الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى : الترغيب والترهيب من الحديث ، القاهرة ، مكتبة صبيح ، الجزء الرابع ، صفحات ١٢٨ – ١٣٣ .
انظر أيضاً :
– مختصر تذكرة الإمام القرطبى ، صفحات ٣٨ – ٤٢ .
٤٧ – قرآن كريم : تفسير الإمامين الجليلين ، صفحة ٥١٨ .
انظر أيضاً :
– أحمد محمد بن على المقرى الفيومى : كتاب المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى : تصحيح حمزة فتح الله ، القاهرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٩٠٦ ، صفحة ٣٤٨ .
انظر أيضاً :
– مختصر تذكرة الإمام القرطبى : صفحة ٥١ .
٤٨ – مختصر تذكرة الإمام القرطبى : صفحات ٥١ – ٥٥ .
انظر أيضاً :
– الترغيب والترهيب من الحديث : صفحات ١٣٥ – ١٣٨ .
٤٩ – مختصر تذكرة الإمام القرطبى : صفحة ٥٧ .
انظر أيضاً :
– الترغيب والترهيب من الحديث : صفحتا ١٤٤ – ١٤٥ .
٥٠ – الترغيب والترهيب من الحديث : صفحة ١٤٨ .
انظر أيضاً :
– مختصر تذكرة الإمام القرطبى : صفحتا ٥٨ – ٦١ .
٥١ – الترغيب والترهيب من الحديث صفحة ١٤٨ .
انظر أيضاً :
مختصر تذكرة الأيام القرطبى : صفحتا ٦٢ – ٦٣ .
– أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الشافعى : الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، مكتبة الجمهورية المصرية ، صفحة ٣٣ .
٥٢ – الترغيب والترهيب من الحديث : صفحات ١٧٧ – ٢١٢ .
انظر أيضاً :
– مختصرة تذكرة الإمام القرطبى : صفحات ٩١ – ١٠٥ .
٥٣ – الترغيب والترهيب من الحديث : صفحات ١٦٢ – ١٧٧ .
انظر أيضاً :
– مختصرة تذكرة الإمام القرطبى : صفحات ٧٣ – ٩٠ .
٥٤ – الترغيب والترهيب من الحديث : صفحة ٢١٣ .

الفصل الثالث

أهم النتائج

سيتضمن الفصل الحالى أهم النتائج التى يمكن استخلاصها فى ضوء مضمون الفصلين السابقين وهى :

١ – أهم نتائج الفصل الأول .

٢ – أهم نتائج الفصل الثانى .

١ – أهم نتائج الفصل الأول

أولا – إن للفظ الموت ، فى اللغة العربية ، مشتقات عدة ، كما أن له معانى عدة . وإن محاولة تعريف ظاهرة الموت ليست محاولة يسيرة . وإن بعض تعاريف الموت متعددة ومتشابهة ، ويؤدى بنا إلى مواجهة مفهوم الحياة . وإن تعريف الحياة ليس بالأمر الهين كذلك . ويتوقف ، دائماً ، على النظرة نحو جوهر الحياة . فالناظر إلى طبيعة الحياة ، على أنها مادية الأصل ، مثلها فى ذلك مثل باقى الأشياء فى العالم ، يتخذ تعريفاً للحياة يختلف عما يتخذه الناظر إلى مصدر جوهر الحياة على أنه مصدر روحى . ويلاحظ أنه إن كانت النظرة نحو الحياة نظرة مادية فإنه يتيسر بحث قوانينها ، وتغيير أنماطها وأشكالها بأسلوب منهجى واع .

ويلتقى المتخصص فى علم الطبيعة مع المتخصص فى علم البيولوجيا فى معالجة مفهوم الحياة عن طريق استخدام علم الكيمياء . ولا يعنى هذا أن الحياة تفسر ، فى ضوء علم الكيمياء ، تفسيراً كاملا ، ولكنه يعنى أن الحياة نموذج كيميائى أكثر منها وقائع فيزيقية . فالوقائع الكيمائية مشتركة فى كل صور الحياة . وهى متشابهة ، بشكل غريب ، فى كل التركيبات العضوية المختلفة .

وترى النظرة العلمية أن الحياة لم توجد منذ الأزل . وأن أصل وجودها من المادة غير الحية لم يكن سوى خطوة من خطوات النمو التاريخى الطويل ، أو التطور التاريخى الطويل للأرض التى نعيش عليها .

والسمة الفريدة للمادة الحية هى عملية التمثيل . وهى عملية متواصلة وفعالة وتحدث فى وقت واحد . وهى عبارة عن تغيرات كيمائية طبيعية مستمرة فى مادة البروتوبلازما ، ويتوقف استمرار وجود التركيبات العضوية عليها . وتتلخص عملية التمثيل فى أن الجسم البروتينى فى التركيب العضوى يمتص العناصر المناسبة من بيئته ثم يتمثلها ، فى الوقت الذى تستهلك أجزاء أخرى من الجسم وتخرج . وفى اللحظة التى تتوقف فيها هذه العملية التحويلية المتواصلة ، ويتوقف فيها هذا التغير المستمر

فى استمراء الغذاء ، وفى إخراج الفضلات ، فى الجسم البروتينى — فى هذه اللحظة ، ينتهى هذا الجسم البروتينى ويتحلل ، أى أنه يموت .

ويلاحظ أن المعنى العلمى لمفهوم الموت ، أو المعنى العلمى لمفهوم الحياة ، سواء حاول شرح ذلك الطبيب الشرعى ، أو المتخصص فى علم البيولوجيا ، أو المتخصص فى علم الطبيعة ، يبدوان ، دائماً ، فى نظر الرجل البدائى ، معنيين غامضين . فتفسير الموت لأسباب طبيعية ، مثلا ، تفسير غير مقبول عنده .

ويعتبر معنى النوم ، وكذلك معنى الغيبوبة ، فى بعض المجتمعات البدائية ، عدم وجود الروح المؤقت . أما الموت فمعناه عدم وجود الروح الدائم ، وقد يصنف بعض الأجناس مفهوم الموت بطريقة مختلفة عما هو معروف ، فهم لا يفرقون بين الحياة والموت ، كما نفعل ، ولكنهم يفرقون بين الحياة السليمة من ناحية ، وبين المرض والموت من ناحية أخرى .

وقد تصور المصريون القدماء أن « الكا » يترك الجسم فى أثناء النوم ، أو فى حالات الغيبوبة . كما تصوروا الموت على أنه انفصال العنصر الجسمانى عن العناصر الروحية . وأنه انتقال من حالة حياة إلى حالة حياة أخرى .

والموت ، عند المصريين المسيحيين هو مفارقة الروح للجسد الذى هو من تراب . وتذهب الروح إلى مكانها اللائق بها . إما إلى مكان الأبرار أو إلى مكان الأشرار . والمنزل الحقيقى ، عندهم ، هو اللحد للجسد ، وهو المسكن الأبدى للروح . وقد عبرت المسيحية عن الموت فى بعض الأحيان بالنوم .

والموت ، عند المصريين المسلمين ، هو مفارقة النفوس لأجسادها ، وخروجها منها . وهو ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال . وشأن الموت ، عندهم ، شأن النوم تماماً . إنما يمتاز الموت بأنه إمساك للروح عند الله ، وهوتشريف وتقريب . أى أن العبد كلما نام خرجت منه النفس ، فإذا استيقظ رجعت إليه ، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً .

ثانياً — الروح ، عند البدائيين ، لها صور متعددة ، كما أن لها معانى متعددة . فقد يتصور أنها تنتشر فى خلال الجسم ، أو تركز فى عضو واحد (الرأس) . وقد تكون فى شكل بشرى ضئيل . أشبه ما يكون بالدمية ، وقد تتجسد ، أو تكون

مادية ، وقد تتعدد وتتناسخ ، وقد تكون فى شكل قزم ، وفى شكل الحية أو ابن عرس أو الفأر ، أو الحشرة ، أو تكون فى شكل فراشة أو فى شكل طائر ، أو فى شكل البط والغربان ، والبوم ، والصقور ، وقد يتصور كأنها نفس الإنسان . وقد تعتبر الروح الجوهر الحيوى ، والجوهر الأخلاقى ، والجوهر المدرك .

ومن خلال الأمور المحيرة التى يلاقيها الباحثون فى عقائد المصريين القدماء ، توجد آراء متشعبة تتعلق بموضوع العناصر التى تكون الشخصية الإنسانية عندهم فهى ، فى مرة ، تتكون من ثلاثى يجمع ، فى وحدة ، كلا من « الكا » الذى يرى فيه البعض صورة غير مادية للجسم ، « صنو أو قرين » ، و « الخو » أى الروح ، و « الخات » أى الجسم . وهى تتكون ، فى مرة أخرى ، من ثلاثى آخر يجمع « الخايبت » أى الظل ، مع « البا » أى الروح ، و « السعحو » أى المومية (الجثة المحنطة) ، أما القلب الجسدى فقد كان يسمى « الحاتى » ، وكان يفترض فيه أن يكون مقر الذكاء . أما روحه فيسمى « الآب » ، ويعنى الإرادة والشهوات . وكان رمز « الشرارة الحية » أو القوة المتحكمة يسمى « سخم » ، وكان الرمز « ران » يعبر عن الاسم الشخصى حيث تمارس القدرة بمجرد النطق به . فإذا رغب الساحر فى القيام بعمل ضد شخص ما ، فإنه يستخدم اسمه وهو ينطق بتعويذاته السحرية الفعالة ! (١) .

والروح أو النفس ، عند المصريين المسيحيين ، بسيطة غير مركبة من أجزاء ، ومستقلة . أى أنها جوهر بسيط ، ولا تقدر الطبيعة أن تفنيه . وإذا كانت الروح أو النفس ذات حركة ذاتية ، وهى القوة المفكرة ، وهى قوة التصور والتمييز والحكم ، وذاتيتها مستمرة مع تغيرات الجسم المتلاحقة ، فإن المادة جاهلة وضعيفة وساقطة .

وحقيقة الروح ، عند المسلمين ، مغيبة عنا ، والبحث عنها كالبحث عن معرفة ذات الله . وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب سائليه حين سألوه عن حقيقة الروح بقوله : « قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٨٥ ك الإسراء) .

ومذهب أهل السنة أن الروح هو النفس الناطقة المستعدة للبيان وفهم الخطاب . وقد ناقش ابن القيم موضوع النفس والروح . هل هما شىء واحد ، أو هما شيئان

متغايران ؟ والرأى عنده أن الفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات .

ثالثاً — مفهوم القرين موجود عند المصريين القدماء ، وكذلك عند المصريين المسيحيين والمسلمين جميعاً . ولكن يلاحظ أنه عند المصريين المسيحيين يسمى « تابعة » وهو قريب من مفهوم القرين فى الإسلام ومفهوم القرين عند قدماء المصريين .

رابعاً — تحكى الأساطير ، فى المجتمعات البدائية ، عن أصل الروح . فهو فى بعضها شيء مقدس قد انتهكت حرمته ، ومن ثم أوجدت قوة الموت ضد الإنسان . ونجد فى بعض الأساطير أن رحمة الله قد قدرت للناس أن لا يموتوا أبداً ، ولكن رسول البشرى السارة قد قصر أو زلّ .

وقد رأى المصريون القدماء أن الموت حالة طبيعية ، ولكن دأبهم فى التفكير فيه ، وفى الخلود . جعلهم يفكرون أيضاً فيما نسميه نحن « إكسير الحياة » الذى يمنع الموت والمرض [٢] .

وترجع عوامل الموت عند المسيحيين إلى هبوط آدم من الجنة ، التى فيها الحياة الخالدة ، إلى الأرض الفانية . وذلك بسبب خطيئته « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢) . ويلاحظ أن السيد المسيح بعد موته ذهبت نفسه الطاهرة وهى متحدة باللاهوت إلى الجحيم وأخرجت نفس آدم وحواء وجميع الأنفس المسجونة بطائلة الخطيئة الأصلية وماتوا على الرجاء ، وأصعدتهم إلى الفردوس .

وترجع عوامل الموت عند المسلمين إلى هبوط آدم من الجنة ، أيضاً ، وذلك بسبب عصيان ربه سبحانه وتعالى . قال الله تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (٣٥ — ٣٦ م البقرة ٢) .

ويلاحظ أنه ، عند المصريين المسلمين ، أن آدم قد تاب من خطيئته ، وتاب الله عليه . « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » (٣٧ م البقرة ٢) .

خامساً — الأساطير فى بعض المجتمعات البدائية تقرر وجود إله الموت . وهو أول إنسان تزوج من أخته ، ومن ثم خالف القانون الأساسى المتعلق بالزواج من خارج العشيرة .

وكان عند المصريين القدماء آلهة ، متخصصة ، للموت ، مثل الإله سكر ، والإله خنتى أمنتيو ، والإله أنوبيس .

وعند المسيحيين يستلم الروح ، عند الموت ، ملاك الرب .

وملك الموت حقيقة يعترف بها الإسلام ، ويعتنقها المسلمون . وهو الموكل بقبض الأرواح ، بإذن الله ، عزرائيل .

سادساً — كان التفكير فى الموت وفى الحياة الآخرة ، شغل المصريين القدماء الشاغل . ويبين وجود آلهة ، متخصصة ، للموت عند المصريين القدماء ، مدى اهتمامهم بالموت .

والدعوة إلى كثرة التفكير فى الموت ، عند المسيحيين المصريين ، موجودة ومطلوبة . وقد تكرر ذكر الموت ، بأنواعه وصوره ، فى أسفار الكتاب المقدس وإصحاحاته ، ٣٣١ مرة .

والدعوة إلى التفكير فى الموت ، وتذكره ، موجودة ، أيضاً ، عند المصريين المسلمين ، وهى مطلوبة كذلك . وقد ذكر الموت ، لفظه ومشتقاته ، فى سور القرآن الكريم وآياته ، ١٦٥ مرة [٣] .

سابعاً — الحياة ، عند المصريين القدماء ، مشتهاة ، وقد حملوا ، إلى درجة التعصب ، كراهية ومقتاً للموت ، وخصصوا جزءاً غير صغير من أموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبته .

أما عند المصريين المسيحيين فالأرض ليست نصيباً لهم . والذى يقصر الله أتعابه ويختاره قبل حينه إنما يمنع عنه الآلام والأتعاب ، والموت مشتهى ، لأن يوم الولادة يثقل كاهل النفس بحمل الجسد الثقيل ، أما يوم الممات فيحررها من ذلك الحمل .

وللمسلمين فى هذه الأرض نصيب . ونجد أنه إذ يرغب الإسلام فى تذكر الموت ، بله الاستعداد له ، فإنه يكره للمرء أن يتمناه أو يدعو به ، لفقر أو مرض أو محنة أو نحو ذلك .

ويجوز تمني المسلم الموت ، والدعاء به ، إذا خاف ذهاب شيء من دينه .

ثامناً — يلاحظ أن المصريين القدماء لم يشعروا بالخوف الكبير من موتاهم . ويمكن إثبات ذلك من شواهد عديدة ، منها ، وربما يكون أهمها ، انتشار سرقة مقابرهم الزائد عن الحد .

ولا يخشى المصريون المسيحيون موتاهم .

وكذلك لا يخشى المصريون المسلمون موتاهم .

٢ ـ أهم نتائج الفصل الثانى

أولا ـ إن عقيدة وجود حياة بعد الموت كانت منتشرة فى كثير من الأقاليم التى تسودها الثقافة البدائية .

وقد احتلت فى نفوس المصريين القدماء فكرة الحياة بعد الموت مكانة عظيمة . . فقد كانوا يخلدون الروح فى قول . وكانوا يؤمنون بالقيامة والبعث . وفى كلتا الحالتين كانوا يؤمنون بالخلود الشخصى بعد الموت .

ويؤمن المصريون المسيحيون بالحياة بعد الموت ، حيث يرجع « التراب (أى الجسد) إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) .

ويجمع المصريون المسلمون على أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال .

ثانياً ـ فى خلال العصور الأولى المعروفة ، لم توجد أية علاقة أخلاقية بين سلوك الإنسان على وجه الأرض وبين الحياة فى الآخرة . فلم توجد أية اعتبارات أخلاقية ، بشأن الموتى ، مثلا ، عند البابليين والآشوريين القدماء . . وإن أخذ ، فى بعض الأقاليم ، بفكرة أن المحاربين الذين يستشهدون فى المعركة ، يذهبون إلى مكان حيث توجد فيه النعمة والسعادة .

وظهر ، فى مرحلة تالية ، تطور عام للفكرة الأخلاقية ، ألا وهى « أن الحياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقاً لسلوك الإنسان على وجه الأرض » .

وفى هذا الضوء ، اعتقد المصريون القدماء ، أن الإنسان ، بعد موته ، سيمثل أمام القضاة بشأن هذا السلوك .

والشهداء عند المصريين المسيحيين قديسون . والمصريون المسيحيون يدعون إلى الإيمان بديمومة النفس ، وقيامة الأجساد ، والجزاء الأبدى ، ويرون أن قضية قيامة الأجساد تتضمن ، أيضاً ، ديمومة النفس ، لأن الأجساد لا تحيا إلا بها ، كما تتضمن ، أيضاً ، الجزاء الأبدى لأنه الغاية من قيامها .

وعند المصريين المسلمين أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم ، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين مستبشرين .

ويرى المصرى المسلم أن هذا الكون تحكمه تدابير عادلة ، ويسير وفق مشيئة عالية ، وكل ما فيه إنما هو دليل اتزان وقصد وعدالة . . . وأن القضاء أمر حتمى ، والحساب لا بد منه ولا محيد عنه .

ثالثاً — الحياة بعد الموت عند المصريين القدماء تعنى ضرورة بقاء الجثة بعد الموت . فالروح ، وإن انفصلت عن الجسم ، فهى ما زالت بحاجة إليه لكى تعيش . أي أن الجسم إذا أبيد هلكت الروح . . ومن هنا نجد العناية بدفن الجثث ، وإقامة المقابر الخالدة ، وحبس الأوقاف لتقديم القرابين ، والاحتفاظ بالتماثيل والأثاث المنزلى فضلا عن الطعام والشراب فى المقابر . . وهذه أدلة على الإيمان بفكرة وجود حياة فى القبر حيث تحوم « البا » فوق الجسم أو تطير إلى داخل القبر لتنضم إلى الجسم . مع ملاحظة أن الناس والآلهة والموتى ، عند المصريين القدماء ، عندها نفس الحاجات وتعامل نفس المعاملة . . فكما أن الآلهة والكائنات الإنسانية قد حكم عليهم أن يعيشوا على الأرض ، فإنهم ، أيضاً ، قد حكم عليهم أن تكون لهم مخاوفهم وأفراحهم ، وأن يتزوجوا زوجاتهم ، وأن ينجبوا أطفالهم . . وأخيراً قد حكم عليهم أن يموتوا ، وأن يحسب عدد سنى حياتهم على الأرض ويسجل .

ولا يعتقد المصريون المسيحيون فى حياة فى القبر بأية صورة من صورها . ولكن يلاحظ أن الأرواح لا تنال ثوابها أو عقابها على أثر انفصالها من أجسادها ، بل تأخذ عربوناً فقط من السعادة إذا كانت صالحة ، أو من التعاسة إذا كانت طالحة ، حتى يجىء يوم القيامة فتلبس الأرواح أجسادها التى تنال معها ما تستحقه من ثواب أو عقاب . فالأرواح الصالحة التى انفصلت بالموت لا تتمتع مباشرة بملكوت السموات ، بل تنعم فى مكان خاص عينه الله للمتوفين من الأتقياء قبل قيامة الأجساد للدينونة . وكذلك الأرواح الشريرة لا تطرح مباشرة فى الجحيم الأبدى ، وإنما تعتقل فى مكان للعذاب (الهاوية) حتى يوم الحساب . .

ويقابل هذا عند المصريين المسلمين أن الروح بعد مفارقتها للبدن بالموت تعود إلى البدن فى قبره وأن فى القبر حياة . ولكنها ليست الحياة المعهودة فى الدنيا التى

تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس ، بل حياة أخرى غير هذه الحياة تعاد الروح إلى البدن إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا ليسأل ويمتحن فى قبره .

وتعاد الروح بين الجسد والأكفان ، وهو عود خاص للمساءلة أى لسؤال الملكين : منكر ونكير . .

والقبر ، عند المصريين المسلمين ، إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، أى أن الميت إذا مات ، يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن ، أحياناً ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب . .

والأرواح متفاوتة فى البرزخ أعظم تفاوت . فمنها أرواح فى أعلى عليين ، ومنها فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ومنها أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى ، وأرواح فى نهر الدم تسبح فيه وتلقم بالحجارة . . فليس للأرواح ، سعيدها وشقيها ، مستقر واحد ، بل روح فى أعلى علّيين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض . . .

رابعاً — كان الاعتقاد ، بالمسئولية الخلقية فى الحياة الآخرة ، حاضراً فى أذهان بناة الأهرام . غير أنه كان منحصراً فى ذلك الوقت فى تعرض المتوفى أمام إله الشمس ، بصفة كونه قاضياً ، وذلك استجابة لطلب إنسان قد أخطأ الميت فى حقة ، لا ليحاسب حساباً شاملا . فكان الاعتقاد القائم إذ ذاك أنه إذا لم يطلب الإنسان للمحاكمة بتلك الصفة فإنه من المحتمل أن لا يتعرض ، فى الآخرة ، لأى حساب آخر ، وبعد عصر الأهرام ببضعة قرون ، نجد أن ذلك الاعتقاد قد أخذ يحدد ويعين بحالة أوضح مما كان عليه من قبل .

ومهما يكن فالمصرى القديم ، وإن كان يعتقد فى عالم الآخرة ، فهذا العالم يبدأ بعد أن يموت ، ثم يصير حيًّا فى القبر ، ثم يحاسب مباشرة بعد ذلك . أى أن مفهوم القيامة المعروف لم يكن معروفاً ، كما يبدو ، عند المصريين القدماء . ويبدو أنه كان هناك مفهومان مميزان عن حياة الآخرة عندهم ، هما : مفهوم المذهب

الشمسى ومفهوم المذهب الأوزيرى . .

لكن يلاحظ أن هذا المفهوم ، مفهوم القيامة ، من أهم أسس المسيحية الراسخة . وقد أكثر كتبة العهد الجديد من ذكر القيامة المجيدة للأجساد إيذاناً بمركزها . وقد اهتم الرسل الأماجد بالدعوة إليها . وهى قيامة للجميع ، الأحياء والأموات . . وحكمة القيامة عند المصريين المسيحيين تتضح فى الدعوة إلى الجهاد ضد الأرواح الشريرة وضد الشهوات ، وفى عدم خشية الموت ، وفى أنها أس النعم ومصدر الخيرات القيمة ، وفى قهر الموت .

وإذا كان القبر ، عند المصريين المسلمين ، أول منزل من منازل الآخرة ، والمرحلة الأولى من مراحلها ، فإن البعث هو المرحلة التالية . ويلى ذلك النشور والحساب ، والميزان والصراط ، والجنة والنار . .

ويلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على ذلك الحدث الأعظم الذى يؤذن بانتهاء الحياة الدنيا وبداية الحياة الأخرى مفاهيم عدة . منها يوم « الآزفة » ، ومنها « يوم الحشر » ، ولكن أبرز هذه المفاهيم ، من ناحية التكرار والمعانى ثلاثة ، هى : يوم الساعة ، ويوم القيامة ، ويوم الحساب . واهتمام القرآن الكريم باليوم الآخر ، بالمعنى المشار إليه آنفاً ، اهتمام كبير ، يدل على ذلك تكرار ذكره فى آياته وسوره .

وحكمة القيامة عند المصريين المسلمين هى فى جوهرها حكمتها عند المصريين المسيحيين . .

خامساً — عند المصريين المسيحيين تقوم القيامة فى لحظة فى طرف عين عند البوق الأخير . . . « فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير » (١ كو ١٥ : ٥٢) . وقال السيد « المسيح » « فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع رياح من أقصاء السموات إلى أقصائها » (مت ٢٤ : ٣١) . ومتى صدر أمر الله إلى ملائكته بإحضار جميع بنى البشر ، وليس من المحتم أن يموت كل الناس يوم القيامة ، بل يوجد من يكونون أحياء وقتئذ فيقتضى تغييرهم فقط — حينئذ تنحدر قوته إلى أعماق القبور فتنعش العظم الرميم . وكم من أجساد مندثرة ضمن طيات الأرض . ولكن الله هو الذى يحيى الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة . ويأمر الله جميع الناس قاطبة أن يقوموا . حينئذ يسلم البحر

الأموات الذين فيه ويسلم الموت والهاوية الذين فيهما . . وهذا العمل لا يحتاج إلى سنين عديدة لأن قدرة الله لا تقف عند زمان ولا مكان . . . بل كما قال الرسول « بولس » : « فى لحظة » . أى أنه بصدور الأمر الإلهى بانتهاء العالم ينتهى فى الحال .. حيث تحدث الزلزلة العظيمة وتصير الشمس سوداء كمسح من شعر والقمر كالدم ، وتسقط نجوم السماء على الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة ، وحيث السماء وقد انفلقت كدرج ملتف ، وكل جبل وجزيرة تزحزحا من موضعهما ، وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى المغاور وفى صخور الجبال ، وهم يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف ، لأنه جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف ؟ (رؤ ٦ : ١٢ — ١٧) .

ولا مفر للخاطئ من ذلك الهول ، ولن تجديه كل محاولاته للتخلص منه . سيسمع ، حينئذ ، بكاء وعويل لم يعرفا منذ إنشاء العالم . ستدوس المرأة ، وهى لا تشعر وليدها الرضيع . ويهمل الأب ابنه وهو لا يدرى . أما الأبرار فلن يدنو منهم شر ، ولا يقترب منهم خطر ، بل يخطفون ، جميعاً ، لملاقاة الرب فى الهواء . .

وعند المصريين المسلمين أن البعث يسبقه النفخ فى الصور مرتين . . ومراد نفخة الصور الأولى هو صعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . . والمقصود بالصعق الموت من الفزع وشدة الصوت . . فلا يبقى لله خلق فى السموات والأرض إلا مات إلا من شاء الله . وعندهم أنه ليس من بنى آدم خلق إلا وفى الأرض منه شىء يعنى عجب الذنب ، فيرسل الله تعالى ماء من تحت العرش منى كمنى الرجال فتنبت أجسامهم ولحومهم كما تنبت الأرض من التراب . ثم يقوم ملك الصور بين السماء فينفخ فيه فتنطلق كل نفس إلى جسدها حتى تدخل فيه ، ثم يقومون فيجيبون إجابة واحدة . . كل ذلك يحدث فى لحظة أهم سماتها السرعة الجارفة والمباغتة الآسرة . . . .

ويوم القيامة ، عند المسلمين ، يوم رهيب ، والأشد رهبة أنه لا محيد عنه إطلاقاً ولا ريب فيه . يوم عصيب لا مفر منه ولا هروب . . « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم

بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢ م الحج ٢٢) . « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » (٣٤ — ٤٢ ك عبس ٨٠) .

سادساً — قد دعيت القيامة ، عند المسيحيين ، قيامة الأجساد خوفاً من أن يظن أحد أن النفس تموت مع الجسد ، لأن النفس خالدة ، لا يمكن أن يتسلط عليها فناء . وقد اجتاز « المسيح » الموت بملء شخصيته . ولما ظهر لتلاميذه بعد قيامه أراهم آثار الجراح فى يديه وجنبه كى يبرهن لهم أن هذا الجسد الذى أبقى عليه ، هو جسده الأصلى على الرغم من أنه تمجد .

ويرى المصريون المسيحيون أنه لا بد أن تلبس النفوس أجسادها لكى تكافأ النفوس التقية منها بالوجود فى السماء ، ولكى تجازى النفوس التعيسة منها بالطرح فى جهنم . . والجسد المقام ، فى رأيهم ، يشابه الجسد الذى يموت من بعض الوجوه وإلا يكون العمل خليقة وليس قيامة. ويرون أن إنكار مشابهة الأجساد الطبيعية للأجساد المقامة ، مشابهة خاصة ، إنكار للقيامة نفسها . ولا يقوم الأعمى أعمى ، ولا الأعرج أعرجَ ، ولا الضعيف ضعيفاً ، بل يقوم الكل أصحاء كاملين . .

وسيكون الفرق عظيما بين أجساد الأبرار وأجساد الأشرار التى تقوم . ويكون الأبرار كملائكة الله فى السماء . . ولا يجوعون ولا يعطشون ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر . . وتكون أجساد الخطاة مملوءة شناعة ومتشحة بالسواد وتنبعث منها الروائح الكريهة .

ويعتقد المصريون المسلمون أن الناس يبعثون ويحيون ويقومون وكلهم أحياء حتى السقط الذى نفخ فيه الروح وتم خلقه . . حيث تنطلق كل نفس إلى جسدها حتى تدخل فيه . . ويبعث كل عبد على ما مات عليه . وقيل إن الميت يبعث فى ثيابه التى قبض عليها ، وقيل إن الناس يبعثون عراة ، يقومون وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم . . . وتكون أرض يوم القيامة بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم . ويحشر الكافرون على وجوههم . ومن الناس من يكونون راكبين ، ومنهم من يمشون ويسعون . . ويبعث المتكبرون فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم .

وقيل إن الناس يعرقون يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعاً . وتدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم بمقدار ميل . وقيل إن يوم القيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة ، وقيل إن مقداره نصف ذلك . وتوضع للمؤمنين ، يومئذ ، كراسى من نور ويظلل عليهم الغمام ، ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار .

سابعاً — وقد لعب السحر ، فى الحياة الآخرة ، عند المصريين القدماء ، دوراً هامًّا ، فنجد ، فى ضوء المذهب الأوزيرى ، أن المصرى كان يضع مع المتوفى بردية تحتوى على عدد عظيم من التعاويذ والصيغ الدينية . وكان الغرض منها تسهيل الطريق للمتوفى حتى يصل إلى جنة « أوزيريس » ولكن يجب على روح المتوفى ، قبل الوصول إلى هذه الجنة ، أن يعبر طريقاً شاقًّا تكتنفه الأخطار . . وكان على هذا الروح ، قبل أن يشارك السعداء الآخرين الذين سبقوه إلى الجنة ، أن يمر بامتحان قاس أمام إله الآخرة « أوزيريس » ، ونعنى بذلك أنه كان لابد أن يحاكم أمام محكمة العدل فى الآخرة ، عن كل أعماله فى عالم الدنيا . . . أى أن المصرى القديم كان يشعر بحساب الآخرة بصورة تدل على نموه العقلى وانبثاق فجر الضمير فى صدره . . .

وكانت تحتوى التعاويذ والصيغ الدينية على ما يقوله المتوفى عند الوصول إلى قاعة الصدق ، عندما يطهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التى اقترفها . ثم يدلى المتوفى بالاعترافات ويعدد الخطايا التى لم يرتكبها . .

والقاضى هو « أوزيريس » يساعده اثنان وأربعون إلهاً فى محاسبة المتوفى . . .

والدينونة ، عند المصريين المسيحيين ، حادثة حقيقية تحدث فى يوم مجهول لدى الجميع ، قد رسمه الله منذ الأزل . . وحدده ليقضى فيه منتقماً من الأشرار الظالمين ، ومنتصراً للأبرار المظلومين . .

أما الديان فهو « يسوع المسيح » ، وإذا كان « المسيح » المخلص قد أتى ، أولا ، وديعاً متواضعاً ، فاتخذ العالم من اتضاعه سبباً لاحتقاره وإذلاله . وإذا كان قد أتى ليسكب على الناس فيض رحمته ، فاتخذ العالم من رحمته سبباً ليسىء إلى هذا الإله الجزيل الصبر والجود — فمن الواجب إذن فى مجيئه الثانى (يوم الدينونة)

أن يأتى ليصلح هذين الجرمين اللذين أجرم بهما البشر . فيأتى ، أولا ، بعظمته ، ويأتى ، ثانياً بعدله . ويصير الخروف الوديع الذى ، بصبر عجيب فى هذه الحياة احتمل من الخطاة إهانات وافتراءات عديدة ، أسداً مفترساً .

وستكون دينونة بنى آدم وحسابهم بموجب أسفار . . السفر الأول هو « الكتاب المقدس » ، والثانى هو « سفر الضمير » . أما السفر الثالث فهو « سفر التوكيل » (توكيل الجسم والعينين والعقل والروح والأموال والوقت . . . إلخ) . . .

وبعد نهاية المحاسبة يتقدم المشتكون والشهود . . والشاهد الأول هو « الشيطان » ، والثانى هو « الخطايا » ، أما الشاهد الثالث فهو « كفارة المسيح والفداء الذى افتدى به البشر » . . .

ويوم الحساب ، عند المصريين المسلمين ، يوم آت ، لا ريب فيه ، يكون الديان فيه هو الله جل جلاله . وهو يوم تؤدى فيه الحقوق إلى أهلها ، ويقتص فيه للخلق بعضهم من بعض حتى للجلحاء من القرناء وحتى للذرة من الذرة . . .

ويسأل المرء ، يوم القيامة ، عن السمع والبصر والفؤاد . ويسأل ، أيضاً ، عن النعيم ويقصد به ما يلتذ به فى الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب ، وقيل إنه الأسودان : التمر والماء . .

وقيل أيضاً إن العبد يوم القيامة يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه . . .

ومناقشة الحساب ، عند المصريين المسلمين ، عذاب وهلاك . .

وتشهد أعضاء العبد عليه يوم القيامة . . تتكلم الأيدى وتشهد الأرجل والألسنة والجلود . . وتشهد كذلك ، على بنى آدم ، يوم القيامة . . الأرض والليالى والأيام بما عملوا عليها وفيها . . ويشهد ، أيضاً ، المال على صاحبه .

ثامناً — ومن الأمور التى أثرت أعمق الأثر فى نفوس المصريين القدماء ، المحاسبة الأخروية كما حدثت بالموازين . حيث يكون الإله «أوزيريس» جالساً فوق عرشه فى نهاية قاعة المحاكمة . . وعندما يسود السكون الرهيب ، يبدأ الروح الزائر ، مرة ثانية ، فى ترتيل اعترافاته . ولا يعلق « أوزيريس » على ذلك بشىء . . . ثم يلاحظ الروح ، وهو يرتعد خوفاً وهلعاً ، الآلهة وهم يزنون ، فى ترو ، قلبه ، فى الميزان

الذى يحمله « أنوبيس » ملاك الموت . . بينما تكون الإلهة « ماعت » إلهة الحق والعدالة ، أو رمزها ، وهو ريشة نعام ، موضوعة ، فى كفة الميزان المقابلة . . . فإذا تبين أن القلب لم يكن لا ثقيلا ولا خفيفاً ، فإن المتوفى تبرأ ساحته . وعندئذ يسجل « تحوت » حكم المحكمة ببراءته، ويعرض النتيجة على « أوزيريس » الذى يعطى الأوامر لكى يعود القلب إلى المتوفى المقدم للمحاكمة . . . ثم يهتف ملاك الموت (أنوبيس) قائلا : « إنه فاز بالنصر ، دعوه الآن ، يسكن مع الأرواح ومع الآلهة فى حقول السعداء » . .

ويؤمن المصريون المسلمون بأن وزن الأعمال حق . . وتوزن الأعمال إذا انقضى الحساب ، لأن الوزن للجزاء فلذلك كان بعد المحاسبة . . . لأن المحاسبة لتقدير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . . والميزان ، يوم القيامة ، ميزان ذرى . . له كفتان ولسان . .

والميزن ملاك موكل به ، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملاك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً . . . وإن خف ميزانه نادى ملاك بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . . . ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، لا يدخل النار وهو يطمع فى الجنة . .

تاسعاً — وقد قبل الفارسيون من أتباع « زارا تشترا » فكرة « الصراط » وهو عبارة عن قنطرة يعبرها الناس بعد موتهم . وتكون عريضة أمام الأبرار ، وضيقة أمام الأشرار ، ومن ثم لا يستطيعون العبور ، ويهوون منها إلى النهاية . .

وعند المصريين القدماء كان يجب على روح المتوفى قبل الوصول إلى الجنة أن يعبر طريقاً شاقاً تكتنفه المخاطر . . .

والصراط عند المصريين المسلمين مثل حد السيف المرهف مدحضة مزلة عليه كلاليب ، ويوضع على سواء جهنم . . وقيل إنه جسر أرق من الشعر وأحد من السيف ، ويكون على المتقين مثل الوادى الواسع بحسب كثرة أعمالهم الصالحة . . وتكون سرعة المرور على الصراط بحسب قوة الهمة والنشاط للعبادة . . وقيل إن على

الصراط سبع قناطر يسأل العبد فى كل منها عن الإيمان بالله وعن الصلاة وعن صوم رمضان وعن الزكاة وعن الحج والعمرة وعن الغسل والجنابة والوضوء . . ثم أخيراً يسأل عن ظلمات الناس . .

عاشراً — وعند المصريين المسلمين أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حوضين كلاهما يسمى كوثراً أى خيراً كثيراً . وقيل فأما أحدهما فيكون إذا خرج الناس من قبورهم وأما الثانى فيكون بعد الصراط . وقيل إنه وسط الصراط . وهو حوض عظيم متسع جداً « ما بين الكعبة وبين المقدس» أو ما بين « عدن إلى عمان » أو « مسيرة شهر » . وماء الحوض أبيض كاللبن . . وقيل أبيض كالورق ، وريحه أطيب من المسك ، وهو ماء أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ أبداً . ومن لم يشرب منه لم يرو أبداً . . .

حادى عشر — والجنة التى وصفتها لنا « متون الأهرام » هى صورة من حياة الفراعين الدنيوية نقلت إلى عالم السماء لتمثل حياة « رع » فى السماء ، وهى الحياة التى كان يعيشها على الأرض قبل أن يرفع نفسه إلى السماء . فنجد فيها الإله الأعظم محاطاً برجال بلاطه الذين يحملون ألقاباً مثل الألقاب التى كانوا يحملونها فى الحياة الدنيا . ويعيشون فى نعيم ، فيلبسون الأرجوانى ، وطعامهم فيها التين ، وشرابهم الخمر ، وشذاهم العطور . . .

ولباب جنة الفراعنة حارس ممثل فى الإله « حورس » المسلح بحربة سحرية فى يده استعداداً لمنع أى فرد من الدخول فيها غير المبرئين . . .

ونجد ، فى ضوء المذهب الأوزيرى ، أن المتوفى يذهب ، بعد إطلاق سراحه ، وهو فرحان ، ليتطلع إلى عجائب العالم السفلى ، فالمملكة المقدسة أعظم من مصر وأفخم ، حيث تعمل الأرواح ، وتصيد ، وتحارب الأعداء . وحيث تكون لكل امرئ حصته وواجباته ، فيجب عليه أن يفلح الأرض ، وأن يحصد الحب الذى ينمو بوفرة ، وبارتفاع شاهق . وحيث المحصول لا يخيب أبداً . وحيث تكون المجاعة والأحزان والأكدار غير معروفة .

وإذا رغبت الروح فى العودة إلى زيارة المناظر المألوفة على وجه الأرض ، فإنها تدخل جسم طائر ، أو جسم حيوان ، أو ربما تنضر فى زهرة . وربما رغبت الروح

فى زيارة قبرها فى شكل « ألبا » ، فتحيي المومية ، وتتطلع إلى المناظر التى كانت مألوفة ، وعزيزة ، فى الأيام السالفة . .

ونعيم الأبرار عند المصريين المسيحيين هو اتصالهم بالله ورؤيتهم جلاله . وتلك هى سعادة الإنسان النهائية التى إليها تتجه كل أشواق قلبه . . ومن هذه المشاهد الإلهية والمحبة المتسببة عنها يتولد فى قلبه سلام وسكون وسرور وتهلل لا يدركها أو يفهمها إلا أولئك الذين عرفوها بالتجربة .

ومن خصائص نعيم الأبرار الذين يحظون به ، فى الحياة الأبدية ، أنه ثابت غير متناه . فهو لا يفنى ولا يزول . فضلا عن أنه يفوق كل إدراك البشر فى سعادته وتبرئته من كل ما ينغص الحياة . « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) . ومع ذلك فالأبرار لا يكونون فى درجة واحدة من السعادة ، بل فى درجات متفاوتة حسب الفضل والاستحقاق . . . ولن تسود عليهم الشهوة لأنهم يكونون كملائكة الله . . « لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء » (مت ٢٢ : ٣٠) .

وقد وصف القرآن الكريم الجنة فى سور كثيرة وآيات متعددة . . وقد أعد الله لعباده الصالحين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

والجنة ، عند المصريين المسلمين نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر يطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة فى مقام أبداً فى حبرة ونضرة فى دار عالية سليمة بهية ، وبناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران . . وفى الجنة أنهار وأشجار . ولها أبواب ودرجات . . وحارسها رضوان . . وفيها غرف وخيام وأسواق . . وبها قصور ودور وبيوت ونساء . . والحرير لباس أهل الجنة ، والخمر شرابهم ، وآنية الذهب آنيتهم . . وأهل الجنة منازل . . وهم لا يبولون ولا يغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون . . أمشاطهم الذهب والفضة ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين . . على طول أبيهم آدم ، والنساء فى الجنة أكثر من الرجال كأنهن الياقوت والمرجان . . وأهل الجنة جرد مرد مكحولون أبناء ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين . . أصحاء . . لا يهرمون ولا يموتون . . كانوا يتكلمون يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة بالسريانية فإذا دخلوا

الجنة تكلموا بالعربية . . وإذا كشف الله تعالى عنهم الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل . .

الثانى عشر — وأرواح الموتى التى يدينها « أوزيريس » بسبب الذنوب التى اقترفتها على وجه الأرض ، عرضة للعذاب المريع فى الهاوية حيث أبوابها الجهنمية وبحار اللهيب . . وذلك قبل أن يبيدها المردة الاثنان والأربعون ، ومعهم « الملتهمة » ، وذلك بالتهامها وتمزيقها إرباً إرباً .

أما جحيم الأشرار ، عند المصريين المسيحيين ، فهو نار جهنم الحقيقية المستعرة على الدوام . . ويتقدم الملائكة لتنفيذ أمر سيدهم ، ويحملون الخطاة إلى الهاوية حيث النار الأبدية ويسوقونهم أمام أعين الصديقين فتنشق الأرض وتفتح جهنم جوفها فتبتلعهم ، ويغوصون فى لججها إلى الأبد . . . « مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب بسخطه يبتلعهم وتأكلهم النار » (مز ٢١ : ٩) .

ويرى المصريون المسيحيون أن طبيعة نار جهنم تختلف عن طبيعة نارنا العنصرية فى كونها ليست مفتقرة إلى مادة تغذيها . وهى تحرق الأنفس والأجسام المعذبة بها دون أن تبيدها أو تفنيها . . كما أنها تشتعل ولا تنطفئ ، وهى تعذب كل واحد من الخطاة حسب خطيئته وبمقدارها . .

والنار حق عند المسلمين المصريين . ومن أسمائها لظى وسقر وهاوية . . وهى النار الحامية والجحيم وجهنم . . وحرها شديد . . ونارها أشد من نار الدنيا . . ولها أنهار وأودية وجبال . . وهى بعيدة القعر . . وشراب أهلها المهل والحميم وماء الصديد والغساق . . وأكلهم الزقوم .

ويعظم أهل النار فى النار ويقبح منظرهم وينتن ريحهم . . ويتفاوتون فى العذاب . وجلدهم يحرق فيها ويجدد فى ساعة أو فى مقدارها ستة آلاف مرة . . ولأهل النار فيها زفير وشهيق .. ويرسل عليهم البكاء فيبكون حتى لو أجريت السفن فى دموعهم لجرت . . وإنهم ليبكون الدم مكان الدمع .

الثالث عشر — ويبدو أن دخول الجنة .. أى مملكة إله الشمس السماوية .. أبدى ، حيث توجد شجرة الحياة . . وحيث تبقى أرواح داخليها سليمة لا تمزق أو تباد . . وذلك خلاف أرواح الموتى التى يدينها « أوزيريس » بسبب الذنوب وتحمل إلى

الهاوية وذلك قبل أن تباد وتفنى . . أى أن الخلود ، عند المصريين القدماء ، خلود فى الجنة . . وليس فى الهاوية . . أى خلود الأبرار وليس الأشرار . . .

وعند المصريين المسيحيين نجد أن الخلود للأبرار وللأشرار جميعاً . . حيث يذهب الأشرار إلى عذاب أبدى (فى الهاوية) ، والأبرار إلى حياة أبدية . وأهل الجنة عند المصريين المسلمين ، هم فيها خالدون . . وأهل النار أيضاً هم فيها خالدون . . فالمرد إلى الله . . إلى جنة أو نار . . والموت يؤتى به يوم القيامة كهيئة كبش أملح . . حيث يذبح بين الجنة والنار . . ثم يقال لأهل الجنة ولأهل النار « خلود فلا موت » . .

المراجع والتعليقات

١ – يلاحظ استخدام « اسم » الشخص إلى يومنا هذا ، فى أعمال السحر . ولعل التعبير الشائع ، عندما يذكر اسم أحد الناس ، فيقال له مجاملة « عاشت الأسامى » من بقايا هذا العنصر الثقافى القديم .

٢ – كان المصريون القدماء يقتنون الودع لأنه فى هيئة رمز الأمومة إذ هو يمثل عضو التأنيث لأن المصرى القديم كان لسذاجته يحسب أن الأم هى التى تقوم وحدها بالتناسل . ومن الودع الذى ما زال الصبيان يعلقونه إلى زماننا هذا لكى يحفظ حياتهم ، ارتقوا إلى أن هذا الإكسير يوجد أيضاً فى الخرز والجواهر والذهب وهذه عقائد لا تزال حية فى بعض الأحيان عند كثير من الأمم والطوائف (مصر أصل الحضارة : صفحتا ٦٧ – ٦٨) .

٣ – ولعل الظاهرة الفريدة ، التى يندر وجودها فى مجتمع آخر غير المجتمع المصرى ، ألا وهى نشر أخبار الوفيات ، ونشر التعازى ، وما يتضمنه هذا النشر من تعبيرات الأحزان والأسى والابتهال والدعوات وغيرها ، فى الصفحات العديدة المعدة لذلك ، والتى لا تخلو منها جريدة يومية تصدر فى مصر – لعل هذه الظاهرة ، أن تبين مدى اهتمام المصريين الكبير ، مسلمين ومسيحيين ، بظاهرة الموت ، حتى يومنا هذا .

ويلاحظ أن هذه الصفحات ، هى شغل الكثيرين الشاغل . وأولوية قراءتها ، عندهم ، على غيرها من الصفحات ، فى جريدتهم المفضلة ، معروفة للجميع .

ولعل هذه الظاهرة تعتبر تطوراً لبعض الشعائر الجنازية التقليدية ، التى تبين بدورها مدى اهتمام المصريين المعاصرين بظاهرة الموت .

* * *

خاتمة

إن أصلح ما يختم به مؤلف كتاب « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » هو إقراره بأنه لم يفعل شيئاً سوى محاولة إثارة هذا الموضوع ، ومحاولة إلقاء بعض الضوء عليه . . أى أن ما قام به لم يكن سوى بداية . . .

ولعل القارئ قد لاحظ ، فى ضوء الدراسة الحالية ، بعض الملاحظات . . . منها وأهمها استمرار وجود بعض العناصر الثقافية ، المتصلة بموضوع الدراسة ، على مر الزمان ، فى المجتمع المصرى . . . ومنها وجود بعض أوجه التشابه بين بعض هذه العناصر الثقافية فى المجتمعات المختلفة على الرغم من تباين الحضارات والثقافات والعصور . . .

فالصلة بين ظاهرة النوم وبين ظاهرة الموت ، ومفهوم القرين ، وعوامل وجود ظاهرة الموت ، ووجود إله للموت أو ملاك للموت ، والتفكير فى الموت ، وعدم خشية الموتى ، والاعتقاد بوجود حياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقاً لسلوك الإنسان على وجه الأرض ، والتفكير فى الحياة بعد الموت ، والاعتقاد فى وجود حياة فى القبر ، وفى حساب الآخرة (محاسبة الضمير) ، وفى وزن الأعمال ، وفى وجود الجنة وشجرة الحياة (شجرة الخلد) ، وفى وجود حارس للجنة ، وفى وجود النار (الهاوية) وبحار لهيبها وأنهاره . . . كل هذه الأمور . . . وغيرها كثير . . . استمر المصريون على مر الأجيال يؤمنون بها ويمارسون الحياة على وجه الأرض على هديها . .

ووجود بعض العناصر الثقافية السابقة ، أو ما يشابهه ، فى المجتمعات الأخرى ، أمر لا جدال فيه ولامراء . . ومن الأمثلة على ذلك . . الصلة بين ظاهرة النوم وبين ظاهرة الموت ، وعوامل وجود ظاهرة الموت ، ووجود إله الموت ، والاعتقاد بوجود حياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقاً لسلوك الإنسان على وجه الأرض . وقد تصور الكثير ، فى بعض المجتمعات الأخرى ، صوراً للروح متعددة ، مثلهم فى ذلك مثل المصريين القدماء . وكانت نظرة بعضهم نحو الشهداء والمستشهدين

هى نظرة المصريين المسيحيين والمصريين المسلمين[١] وقد قبل الفارسيون من أتباع « زارا تشترا » فكرة « الصراط » ، وهو عبارة عن قنطرة يعبرها الناس بعد موتهم . . وتكون عريضة أمام الأبرار ، وضيقة أمام الأشرار ، ومن ثم لا يستطيعون العبور ، ويهوون منها إلى الهاوية . .

ولم يحاول المؤلف تفسير عوامل استمرار وجود العناصر الثقافية المتصلة بموضوع الدراسة فى المجتمع المصرى القديم قدم الدهر . . المستمر استمرار الحياة ، ولا تفسير وجود بعض أوجه التشابه بين بعض هذه العناصر فى المجتمعات الأخرى المختلفة . فهذه المحاولة . . أى محاولة التفسير ، مع أهميتها ، مجالها دراسة أخرى تتناول أول ما تتناول الموضوعات المتصلة بظاهرة « التغير الثقافى » فى المجتمعات ، بصفة عامة ، وفى المجتمع المصرى بصفة خاصة . . ولعل المؤلف أن يقوم بهذه الدراسة وما يتصل بها ، فى ضوء الواقع الحى فى مجتمعنا ، فى فرصة قريبة .

ولعل القارئ قد لاحظ ، أيضاً ، أن دراسة فكرة الخلود فى ضوء المفهوم الذى تبناه المؤلف ، وكما عرضها فى الفصول الثلاثة السابقة ، لم تعن ، فى كثير أو فى قليل ، بإثبات أو عدم إثبات وجود حياة بعد الموت . . فهذا موضوع ، مع خطورته ، خارج ، بالضرورة ، عن مجال الدراسة الحالية . . ، وأن ما حاولت الدراسة الحالية أن تعنى به هو أن تسجل ، على المستوى النظرى ، أن اعتناق فكرة وجود حياة بعد الموت ، أو عدم اعتناق هذه الفكرة ، يؤثران ، من غير شك ، على

---

(١) يلاحظ أن الاستشهاد ، عند المصريين المسيحيين والمصريين المسلمين ، يكون فى سبيل الله . . والشهيد ، بهذا المعنى ، عند المصريين المسيحيين يكون قديساً . ويلاحظ ، أيضاً ، أن تقديس البشر لم يكن يمنح فى مصر القديمة غالباً . . مما جعل « هيرودوت » يقول : الأبطال لم يكونوا موضع أى تقديس ومع ذلك نجد بعض الأمثلة على هذا التقديس . . فبعض الملوك قد قدسوا فعلا . . والأناس العاديون نالهم التقديس بعد وفاتهم مباشرة أو بعد مضى مدة طويلة من وفاتهم . ولا بد من ملاحظة أن نظرة المصريين القدماء فى العهود الأخيرة جعلتهم يعتبرون كل من يغرق فى نهر النيل إلهاً . . . وقد حدث هذا للأخوين ببور (Pebor) وبيتى ازيس (Peteisis) . . انظر :

Georges Posener en collaboration avec serge sauneron et Jean yoyotte "Dictionnaire de la civilisation égyptienne," Fernand Hayan 35 et 37 Rue de Seine Paris VI 1959, Paris printed in France P. 89

نظرة الناس ، المعتنقين منهم وغير المعتنقين ، نحو الحياة الحاضرة ، كما يؤثران على سلوكهم فى هذه الحياة . ولا شك أن الكثير من التضحيات العظيمة التى بذلت ، فى سبيل الجنس البشرى ، قد قام به أناس يؤمنون بعقيدة الحياة بعد الموت . .

ولعل قارئ الكتاب أن يوافق المؤلف على أن هذه الدراسة النظرية ، مع ضرورتها وأهميتها ، فى مسيس الحاجة إلى أن تستكمل . . ولن يتحقق ذلك إلا بالقيام بدراسة واقعية فى محيط المصريين المعاصرين . . للتعرف على نظرتهم نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى ونحو الخلود . . .

لقد بدأ المؤلف هذا العمل فعلا . . ولعل الفرصة أن تتاح له لكى يتم ما بدأ . . ثم يخرجه إلى النور . . .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر